

جان بول سارتر

الغرفة

وقصص أخرى



مكتبة

الفكر الجديد

ترجمة
د. أسيل الدليس

دار الآداب

جَبَانُ بُولِ تَارْتَر

الغرفة وَقصص أُخْرَى

ترجمة

الدكتور سيبيل اريس

دارالآداب - بيروت

الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٨

الفُرقة

كانت السيدة داربيدا تمسك بقطعة من راحة الحلقوم بين أصابعها . وأذنتها من شفتيها في حيطة ، وأمسكت نَفْسَهَا خشية ان يتطاير غبار السكر الدقيق الذي كان متثوراً عليها . وقالت في نفسها : « أنها وردية » . وفجأة عضت هذا اللحم الزجاجي ، فامتلاً فمها بعطر منتن . « عجيبٌ كم يُرهِف المرض الأحاسيس ! » وأخذت تفكّر في مساجد ، وفي شرقيين ذوي عذوبة مفرطة (لقد سبق لها ان كانت في مدينة الجزائر في أثناء شهر العسل) ورسمت شفاتها الصفراوان بسمة : كانت راحة الحلقوم ، هي أيضاً ، مفرطة العذوبة . ووجب عليها ان تُتمرّ باطن يدها عدة مرّات على صفحات كتابها ، لأن طبقة دقيقة من المسحوق الأبيض كانت قد غطّتها ، بالرغم من حيطتها . كانت يداها تُدحرجان حبوب السكر الصغيرة على الورق الأملس ، وتجعلانها تُصرّ . « إن ذلك يذكرني بأركاشون ، حين كنت أقرأ على الشاطيء » . وكانت قد قضت صيف ١٩٠٧ على شاطيء البحر . كانت تضع على رأسها آنذاك قبعة كبيرة من القش وشريطاً أخضر ؛ وكانت تجلس على مقربة من الأمواج ، ويدها رواية بلحيب او لكبوليت لإيفر . وكانت الريح تمطر على ركبتيها ودوامات من الرمل ، فتنفض بين الحين والحين كتابها ممسكة إياه بأطرافه . إن أحساسها الآن يشبه ذاك تماماً : غير أن ذرات الرمل كانت جافة كل الحفاف ، في حين أن حبيبات السكر هذه تلتصق قليلاً بأطراف أصابعها . وتمثّلت من جديد رقعة من سماء رمادية فوق بحر أسود . « إن « إيف » لم

تكن قد وُلدت بعد . « وأحست أنها مثقلة بالذكريات ، ثمينة كصندوق صغير من الصندوق . وعاد إلى ذاكرتها فجأة اسم الرواية التي كانت تقرأها آنذاك : كان عنوانها « السيدة الصغيرة » ، ولم تكن مضجرة . ولكنّ السيدة داربيدا أوضحت تفضّل كتب المذكرات والمؤلفات التاريخية منذ أن ألزمها ذلك المرض المجهول غرفتها . وكانت تصبو الى ان ينضجها الألم والمطالعات الرصينة والعناية الناشطة المتجهة الى ذكرياتها والى أعذب أحاسيسها ، كما تنضج الثمرة المبكرة .

وفكرت ، في شيء من العصبية ، بأن زوجها لن يلبث حتى يطرق بابها . وكان من عادته ، في أيام الاسبوع الأخرى ، ان يأتي قرابة المساء ، فيقبل جبينها في صمت ، ويقرأ « لوماتان » قبالتها ، وهو جالس في الأريكة . اما الخميس ، فكان « يوم » السيد داربيدا : كان يقصد بيت ابنته فيقضي لديها ساعة ، من الثالثة الى الرابعة عادة . وقبل ان يخرج ، كان يدخل غرفة زوجته فيتحدث معها عن صهرها في مرارة . وكانت محادثات الخميس هذه ، القابلة للتخمين في جميع تفاصيلها ، ترهق السيدة داربيدا . كان السيد داربيدا يملأ الغرفة الهادئة بحضوره . ولم يكن يجلس ، بل كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويستدير حول نفسه . وكانت كل فورة من فوراته تبحر السيدة داربيدا كشظية من زجاج . وفي ذلك الخميس ، كان الأمر اسوأ من المؤلف : كان حسّب السيدة داربيدا ان تفكّر بأن عليها الساعة ان تردّد لزوجها اعترافات « ايف » وأن ترى هذا الجسم الكبير المرعب يقفز من شدة الغضب ، حتى ترشح عرفاً .

وتناولت من الصحن قطعة من الحلقوم ، وتأملت لحظات في تردّد ، ثم وضعتها بجزن : لم تكن تحبّ ان يراها زوجها وهي تأكل الحلقوم . وقد انتفضت وهي تسمع الباب يطرق ، فقالت في صوت ضعيف :
— ادخل .

فدخل السيد داربيدا على رؤوس أصابعه .

قال ، على عادته كل خميس :

— اني ذاهب لأرى ايف .

فبسمت له السيدة داربيدا :

— قبلها بالنيابة عني .

فلم يجب السيد داربيدا ، وغضن جبينه بهيئة قلق : كان غيظاً أصمّ يمزج لديه كلّ يوم خميس في الساعة نفسها ، بأثقال عملية التمثّل .

— سأمرّ على فرانشو بعد خروجي من بيتها ، فانا أودّ ان يحدّثها بجد وان يحاول إقناعها .

وكان يقوم بزيارات كثيرة للدكتور فرانشو . ولكن عبثاً .

وهزّت السيدة داربيدا حاجبيها ، وكانت في الماضي ، وهي في كامل صحتها ، تهزّ كتفيها . ولكن منذ أن أثقل المرض جسمها ، كانت تستبدل الحركات التي تتبعها أكثر مما ينبغي ، بإشارات من وجهها : فتقول نعم بعينيها ، لا بزوايتي فمها ؛ وترفع حاجبيها بدل كتفيها .

— لا بدّ من محاولة انزعاعها منه بالقوة .

— لقد سبق ان قلت لك ان هذا مستحيل . ثم إن القانون فاسدٌ في هذه الناحية . وقد كان فرانشو يقول لي منذ مدة إنهم يعانون مضايقات لا تُتصوّر مع الأسر : فهناك أشخاص لا يقرّرون ، أشخاص يريدون ان يحتفظوا بالمرضى عندهم ؛ وهكذا توثق ايدي الأطباء ، وكل ما يستطيعون فعله هو ان يُبدلوا برأيهم وحسب .

وأضاف يقول :

— فينبغي ان يُحدث فضيحة عامة ، او ان تطلب هي نفسها حجّره .

قالت السيدة داربيدا : — وهذا لن يتمّ غداً .

— طبعاً .

والتفت نحو المرأة ، ففرز أصابعه في لحيته وأخذ يمشطها . وكانت السيدة

داربيدا تنظر بلا ودّ الى رقبة زوجها الحمراء القوية . وقال السيد داربيدا :

— اذا ظلت على هذا الحال ، فستصبح اكثر جنوناً منه . إن وضعها
وخيم بصورة فظيعة . فهي لا تغادره قيد أملة ، ولا تخرج الا لتذهب الى
مقابلته ، ولا تستقبل أحداً . وأقلّ ما يقال عن جو غرفتهما إن التنفّس فيه
مستحيل . إنها لا تفتح النافذة قط ، لأن ييار لا يريد ذلك . كما لو أن
استشارة المريض شيء لازب . لإنهما يحرقان عطوراً في وعاء ، تشبه القذارة ،
حتى ليحسب المرء انه في كنيسة . واني لأتساءل أحياناً ... إن لها لو تعلمين
عينين غريبتين ...

قالت السيدة داربيدا :

— لم لاحظ ذلك . بل أنا أجدها طبيعية الهيئة . إنها تبدو حزينة بالطبع .
— بل إن لها سحنة ممتعة . أتراها تنام ؟ أتراها تأكل ؟ ينبغي ألاّ تُسأل
عن هذه الأمور . ولكنني أعتقد بأنها ، والى جانبها رجل قويّ البنية كبير ،
بعيدة عن ان تغمض عينها في الليل .

وهزّ كتفيه واستطرد يقول :

— إن ما أجده اسطورياً هو انه لا يحق لنا ، نحن أبويها ، ان نحميها من
نفسها . لاحظني أن ييار سيعتني به عناية أفضل لدى فرانشو . فهناك حديقة
كبيرة .

وأضاف وهو يتسم قليلاً :

— ثم اني أعتقد أنه سيتفاهم بصورة أفضل مع أناس من جنسه . إن هؤلاء
الكائنات الأطفال ، يجب ان يُتركوا فيما بينهم ؛ لأنهم يشكّلون ضرباً من
المحفّل الماسوني . وقد كان ينبغي و معه هناك منذ اليوم الاول ، واقول :
إن ذلك لصالحه . كان ذلك لصالحه طبعاً .

وأضاف بعد لحظة :

— بل اقول لك اني لا احب ان اعرف انها مع ييار وحدها ، لا سيما
ليلاً . تصوّري ان يحدث شيء ما . إن ييار يبدو مرثياً بشكل فظيع .
قالت السيدة داربيدا : — لا أدري ان كان ثمة مجال لقلتي كبير هنا ،

مع العلم بأن هذا هو شأنه دائماً . كان يُشعر الناس بأنه يسخر منهم .
واستطردت وهي تنهّد :

— يا للفتى المسكين ! من يصدّق ان من كان يملك مثل كبريائه يبلغ الآن هذا
المبلغ ؟ كان يحسب نفسه اذكى منا جميعاً .. اتذكر طريقته في ان يقول لك :
« انت على حق ... » ليغلق باب المناقشة ؟ إنها لنعمة له ألاّ يستطيع ان يرى
حالته .

وكانت تستحضر في استياء صورة ذلك الوجه الساخر الطويل ، المائل
ابداً الى ناحية . ولم تكن السيدة داربيدا ، في الاوقات الاولى من زواج ايف ،
تطلب خيراً من ان تكون لها مع صهرها بعض الصميمية . ولكنه كان قد
ثبّط جهودها : فهو لم يكن يتكلم تقريباً ، وكان دائماً ما يوافق في عجلة
وبهيئة غائبة .

كان السيد داربيدا يتابع فكرته فقال :

— لقد رافقتي فرانثو في زيارة مؤسسته . انها رائعة . إن للمرضى غرفاً
خاصة ذات ارائك جلدية وأسرة على شكل دواوين . وهناك ساحة لكرة
المضرب ، وسوف يقيمون مسبحاً عما قريب .

وكان قد انزع امام النافذة ينظر عبر الزجاج وهو يترنح قليلاً على
ساقيه المقوستين . واستدار فجأة على عقبه ، منخفض الكتفين ، ويداه في
جيبيه . وأحست السيدة داربيدا انها على وشك ان تنضح عرقاً : كان ذلك
متشابهاً في كل مرة ؛ سيذرع الغرفة الآن جيئة وذهاباً كأنه دبّ في قفص ،
وسيفرق نعلاه في كل خطوة .

قالت : — ابتهل اليك يا صديقي ان تجلس . انك تتعبي .

واضافت في تردد : — إن لديّ امرأً خطيراً اقله لك .

فجلس السيد داربيدا في الأريكة ووضع يديه على ركبتيه ؛ وسرت
رعشة خفيفة في صلب السيدة داربيدا : لقد آن الأوان ، فيجب ان تتكلم .

قالت في سعة ارتباك :

— انت تعلم اني رأيت ايف يوم الثلاثاء .

— نعم .

— لقد تحدثنا في أشياء كثيرة ، وكانت لطيفة جداً ؛ لقد مرّ وقت طويل لم أرها فيها واثقة من نفسها إلى هذا الحدّ . وهكذا طرحت عليها الأسئلة ، وجعلتها تتكلم عن ييار ..

واضافت ، وقد عاودها الارتباك :

— وقد علمت انها « شديدة » التعلّق به .

قال السيد داربيدا : — أعرف هذا جيداً .

كان يزعج السيدة داربيدا قليلاً : فقد كان مما لا غنى عنه ان تُشرح له الأمور بدقة ، وان توضع النقاط على الحروف . وكانت السيدة داربيدا تحلم بأن تتعاطى مع أشخاص مرهفين حسّاسين يفهمونها من كلمة واحدة . واستطردت تقول :

— ولكني أقصد انها تتعلق به « على غير النحو » الذي كنّا نتصوّره .

فأدار السيد داربيدا عينين غاضبتين قلقتين . شأنه كل مرة لا يدرك فيها تماماً معنى ايماءة او نبأ :

— ماذا يعني هذا ؟

قالت السيدة داربيدا : — لا تتعبني يا شارل . ينبغي ان تفهم انه يمكن للأُم ان تجد مشقة في قول بعض الأشياء .

فقال السيد داربيدا في غيظ :

— انني لا أفهم كلمة واحدة مما تقولينه لي . على انك لا تقصدين ...

قالت : — بلى !

— انهما لا يزالان .. لا يزالان الآن ؟

— نعم ، نعم ، نعم .

قالتها منزعجة في ثلاث ضربات جافة . فباعده السيد داربيدا ما بين ذراعيه ، وخفض رأسه ثم صمت . وقالت زوجته في قلتي :

– شارل ، ما كان ينبغي لي ان اقول لك ذلك . ولكني لم اكن استطيع ان
أحتفظ بهذا لنفسى .

قال بصوت بطيء :

– ابنتنا ! مع ذلك المجنون ! لقد بلغ به الأمر انه أصبح ينكرها ، فهو
يسمّيها « اغات » . ولا بدّ انها قد فقدت حسنّ الواقع .

ورفع رأسه ونظر الى امرأته في قسوة :

– أنت متأكدة من انك قد فهمت جيداً ؟

– لم يكن ثمة شك ممكن .

وأضافت بحجوية :

– انني مثلك ؛ لم اكن أستطيع ان أصدّقها ، والحق اني لا أفهمها . انني
بمجرد ان أفكّر بأن يلمسني هذا الشخص المسكين ...

وزفرت تقول :

– مهما يكن .. فانا افترض أنه انما يستولي عليها من هذه الناحية ...

قال السيد داربيدا :

– أسفاً ! هل تذكرين ماقلته لك حين اتى يطلب يدها ؟ لقد قلت لك :

« أعتقد انه يروق ايف . اكثر مما ينبغي » فلم تشأني ان تصدقيني .

وضرب الطاولة فجأة بيده واحمرّ بعنف :

– إن هذه دعارة ! إنه يأخذها بين ذراعيه ويقبلها وهو يناديها « اغات »

ويصبّ عليها سخافاته عن الأصنام التي تطير ولا أدري ماذا ! ثم هي تدعه

يفعل ! ولكن ما الذي بينهما ؟ أن ترثي له من صميم قلبها ، وان تضعه في

بيت للراحة تستطيع ان تراه فيه كل يوم ، انني أفهم هذا ... ولكني لم أكن

لأفكر قط .. – كنت أعتبرها كالأرملة ..

واستطرد بلهجة جادة :

– اسمعي يا جانيت ! سأحدثك بصراحة : اذا كانت لها حواسّ ، فاني

أفضّل ان تتخذ لها عشيقاً !

فصاحت السيدة داربيدا ؛

— اسكت يا شارل !

وتناول السيد داربيدا بهيئة متعبة العصا والقبعة اللتين كان قد وضعهما وهو داخلٌ على احدى الطاولات . وانتهى الى القول :

— لم يبق لي أملٌ كبير ، بعد كل الذي حدثني به . ومع ذلك ، فسوف أكلهما لأن ذلك واجبي .

وكانت السيدة داربيدا تستعجل في نفسها ذهابه ، فقالت مشجعة اياه :
— أعتقد ان لدى ايف ، بالرغم من كل شيء ، عناداً أكثر من .. اي شيء آخر . انها تعلم ان لا رجاء بشفائه ، ولكنها تعاند ، وهي لا تريد ان تحصل على تكذيب لذلك .

وكان السيد داربيدا يداعب لحيته حالماً :

— عناد؟ ربما كان ذلك . فاذا كنت على حق ، فسيتهي الأمر بها الى الضجر . انه ليس دمثاً كل يوم ، ثم إنه قليل الحديث . فأنا حين اقول له مساء الخير يمدّ لي يداً رخوة ولا يتكلم . وأحسب انه ، حين يكونان وحيدين ، يعود الى أفكاره الثابتة : فهي تقول لي انه يحدث له ان يصرخ كالذبيح لأنه يقع في الهلوسات . أصنام . أصنام تخيفه لأنها تدمدم . وهو يقول انها تطير حوله وانها تنظر اليه بعيون بيضاء .

وكان يرتدي قفازيه ؛ وقد أضاف :

— لا اقول انها لن تتعب او تضجر ، ولكن ما يدرينا انها لن تُجنّ قبل ذلك ؟ اودّ لو انها تخرج قليلاً ، وان ترى الناس : فلا بد ان تلتقي شاباً لطيفاً — خذي مثلاً ، شخصاً مثل سكرودر المهندس عند سامبلون ، شخصاً له مستقبل ، فسوف تراه قليلاً هنا وقليلاً هناك ، وستعتاد رويداً رويداً على التفكير بأن تصنع حياتها من جديد .

ولم تجب السيدة داربيدا خشية ان تطلق للحديث العنان مرة اخرى . وانحني زوجها عليها يقول :

— هيا ، ينبغي ان أذهب .

فقالَت السيدة داربيدا وهي تُدني منه جبينها :

— الى اللقاء ، قبلها جيداً وقل لها من قبلي إنها حبيبة مسكينة .

واسترخت السيدة داربيدا في مقعدها ، حين خرج زوجها ، وأغمضت

عينها ، مرهقة ، وفكرت في عتاب : « اية حيوية ! » وما ان استردت

بعض قواها حتى مدت يدها فتناولت من الصحن قطعة من الحلقوم ، تلمستها

تلمساً من غير ان تفتح عينها .

كانت ايف تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من بناية قديمة ، في

شارع باك . وقد ارتقى السيد داربيدا المئة والاثني عشرة درجة من السلم في

خفة . وحين ضغط على زر الجرس ، لم يكن حتى لاهثاً . وتذكر في رضى

كلمة الآتسة دورموي : « انك لرائع يا شارل ، وانت في «هذه السن» »

لم يكن يُحس انه اقوى ولا اوفر صحة مما هو يوم الخميس ، لا سيما بعد

هذا الارتقاء الناشط .

وكانت ايف هي التي اقبلت تفتح له : « صحيح . ليس لديها خادمة .

فهايتك الفتيات « لا يستطعن » ان يبقين عندها : اني اتصور نفسي مكانهن . »

وعانقها مقبلاً : « مساء الخير ايتها الحبيبة المسكينة » .

فردت ايف تحيته في بعض البرود . وقال لها السيد داربيدا وهو يلمس خدتها :

— انك ممتعة قليلاً ، وانت لا تقومين بما يكفي من التمرين .

وساد صمت ، ثم سألت ايف :

— هل تكون صحة امي بخير ؟

— هكذا وهكذا . هل رأيتها يوم الثلاثاء ؟ إنها على ما هي عليه . لقد

جاءت العمة لويز لرويتها أمس ، فكانت مسرورة بذلك . إنها تحب الزيارات ،

ولكن ينبغي ألا تطول . وقد قدمت عمّتك لويز الى باريز مع الاولاد من

أجل قصة الرهونات تلك . واحسب اني حدثتك عنها ، انها قصة غريبة .

وقد مرت بمكثتي تستشيرني ، فقلت لها ان ليس ثمة خيار بين موقفين : فيجب ان تبعد . والواقع انها وجدت شارياً : هو بروتونيل . هل تذكرين بروتونيل ؟ لقد انسحب الآن من الأعمال .

وتوقفت فجأة : كانت ايف لا تكاد تصغي اليه . وفكر في حزن انها لا تهتم بشيء بعد . « كذلك كان شأنها مع الكتب . كان ينبغي في الماضي ان تُنزع منها . أما الآن فقد كفت حتى عن القراءة . »

— وكيف حال بيار ؟

قالت ايف : — جيدة . هل تريد ان تراه ؟

قال السيد داربيدا في جدل :

— بالتأكيد . سأقوم بزيارة قصيرة له .

كان ممتلئاً بالعطف على هذا الفتى المسكين ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يراه من غير اشمزاز . « اني أنفر من الكائنات المتنته » بالطبع ، لم تكن هي غلطة بيار : فقد كان له إرثٌ مثلث بشكل فظيع . وكان السيد داربيدا يتنهّد : « إن الاحتياطات تتخذ عبثاً ، فان هذه الأمور لا تُعرف الا بعد فوات الأوان . » أجل ، لم يكن بيار مسؤولاً . غير انه مع ذلك كان يحمل في نفسه هذه العاهة ابدأ ، كانت تشكّل صميم شخصيته ؛ إنها لم تكن مثل السرطان أو السل اللذين يمكن التغاضي عنهما حين يُراد الحكم على إنسان كما هو في ذاته . فان ذلك الجمال العصبي وتلك الرهافة اللذين كانا يروقان لايف كثيراً ، حين كان يغازلها ، انما كانا أزهار جنون . « كان قد جنّ حين تزوّجها ؛ غير ان ذلك لم يكن ليلحظ . » وفكر السيد داربيدا : « إن المرء ليتساءل أين تبدأ المسؤولية ، او بالاحرى اين تقف . لقد كان على اي حال يفرط في تحليل نفسه ، كان دائماً ملتفتاً الى ذاته . ولكن أياكون هذا سبب مرضه او نتيجته ؟ » كان يتبع ابنته عبر ممرّ طويل مظلم ، فقال :

— إن هذه الشقة اكبر من ان تحتاجي اليها . فينبغي ان تنقلي منها .

فأجابت ايف :

– انك تقول لي هذا كل مرة يا بابا . ولكني سبق ان قلت لك ان بيار لا يريد ان يترك غرفته .

كانت ايف مدهشة : حتى ان المرء ليتساءل هل كانت تدرِك جيداً حالة زوجها . كان من الجنون بحيث ينبغي ان يُربط ، ومع ذلك فقد كانت تحترم قراراته وآراءه كما لو انه كان يملك جميع قواه العقلية .
واستطرد السيد داربيدا بلهجة لا تخلو من انزعاج :

– إن ما اقله في ذلك هو لصالحك . يخيّل إليّ اني لو كنت امرأة لأخذني الخوف في هذه الغرف الرديئة الإضاءة . كنت أتمنّى لك شقة مشرقة كتلك التي بنيت في السنوات الأخيرة ، جهة « اوتوي » : ثلاث غرف صغيرة ذات تهوية جيدة . وقد خفضوا اجرة مساكنهم لأنهم لا يجدون مستأجرين ؛ فهذه فرصة مناسبة . »

وأدارت ايف على مهل مقبض الباب ، فدلنا الى الغرفة . وكاد السيد داربيدا يخنق من جراء رائحة بخور ثقيلة . كانت الاستار مسدلة ، وقد لمح في الظلام رقبة هزيلة فوق مسند أريكة : كان بيار يأكل ، مولياً ظهره .

قال السيد داربيدا وهو يرفع صوته :

– مساء الخير يا بيار . كيف الحال اليوم ؟

واقترب السيد داربيدا : كان المريض جالساً أمام طاولة صغيرة ، وكانت له هيئة غامضة . وأضاف السيد داربيدا وهو يرفع صوته :

– يبدو اننا أكلنا أيضاً مسلوفاً . وهو لذيذ طبعاً !

قال بيار بصوت ناعم :

– انني لست أصمّ .

فاغتاظ السيد داربيدا وادار عينيه نحو ايف ليُشهدا على ذلك . ولكن ايف بادلته نظرة قاسية وصمتت . وادرك السيد داربيدا انه كان قد جرحها . « فليكن . هذا لديّ سواء » كان من المستحيل ان يجد المرء اللهجة الحقيقية التي ينبغي ان يحدث بها هذا الفتى المسكين : فقد كان أصغر عقلاً من صبيّ

في الرابعة ، وقد كانت ايف تريد ان يُعامل كرجل . ولم يكن السيد داربيدا يستطيع الامتناع عن ترقب اللحظة التي تزول فيها هذه الالوان من المراعاة المفرطة . كان المرضى يزعجونهم دائماً بعض الإزعاج ، ولا سيما المجانين لأنهم يكونون على خطأ . فان بيار المسكين ، مثلاً ، كان مخطئاً على طول الخط ، ولم يكن ينبس بكلمة من غير ان يضلّ ، ومع ذلك فقد كان من العيب ان يطلب منه أي تواضع ، او حتى الاعتراف العابر بأخطائه .

ورفعت ايف قشر البيض وإناءه ، ثم وضعت أمام بيار صحناً وشوكة وسكيناً . فقال السيد داربيدا بلهجة مرحة :

– ما الذي سيأكله الآن ؟

– قطعة ييفتاك .

وكان بيار قد تناول الشوكة فأمسكها بأطراف أصابعه الصفراء . وحلجها بدقّة ثم ضحك ضحكة خفيفة ، وتمم وهو يضعها :

– لن أفعلها هذه المرة . فقد تنبّهت مسبقاً .

واقربت ايف فنظرت إلى الشوكة في اهتمام مهووس . قال بيار :

– أغات ، أعطيني شوكة اخرى .

فأطاعت ايف ، وأخذ بيار يأكل . وكانت قد أخذت الشوكة المشبوهة وشدتها في يديها من غير ان تغادرها بعينها : كان يبدو وكأنها تبذل جهداً عنيماً . وفكر السيد داربيدا : « ما أعجب حركاتها جميعاً وعلاقتها جميعاً ! »

كان منزعجاً . قال بيار :

– حذار . خذها من وسط ظهرها خوفاً من الأسنان .

فنتهدت ايف ووضعت الشوكة على فضلة الطعام . وأحس السيد داربيدا بالحدردل يصعد الى أنفه . لم يكن يستحسن الاستجابة لجميع أهواء هذا المسكين – إن ذلك ضارّ ، حتى من وجهة نظر بيار . وقد سبق لفرانشو ان أكد ذلك : « ينبغي ألاّ تشارك مريضاً هذيانه على الاطلاق . » فقد كان من الأفضل ألاّ يُعطى شوكة أخرى ، بل كان ينبغي اقتناعه بالمحاكمة العقلية

المادثة أن الشوكة الاولى كانت شبيهة بالاخريات .

واقرب السيد داربيدا من فضلة الطعام ، فتناول الشوكة ولامس أسنانها
باصبع خفيفة ، ثم التفت الى بيار . ولكن هذا كان يقطع اللحم في هدوء ؛
وقد رفع نحو عمه نظرة عذبة خالية من المعنى . وقال السيد داربيدا لإيف :
- اودت ان اثرت معك قليلاً .

فتبعته إيف بوداعة الى الصالون . ولاحظ داربيدا وهو يجلس على الأريكة
انه كان ما يزال يحتفظ بالشوكة في يده . فألقاها في كزازة على إحدى
الطاولات .

قال : - الجوّ هنا أفضل .

- اني لا أدخل هذه الغرفة قط .

- هل أستطيع التدخين ؟

فقال إيف في استعجال :

- طبعاً ، يا بابا . هل تريد سيكاراً ؟

فآثر السيد داربيدا ان يلفّ سيكاراً . وكان يفكر بلا ضمير في المناقشة
التي سيبدأها . كان اذ يتحدث الى بيار يُحسّ نفسه مرتبكاً بعقله كما قد
يرتبك عملاق بقوته اذ يلاعب صبيّاً . كانت جميع مزايها وضوحه وصفائه
ودقته تنقلب عليه . « يجب ان اعترف بأن الأمر مشابه جداً ، مع عزيزتي
جانيت . » صحيح ان السيدة داربيدا لم تكن مجنونة ، ولكن المرض كان
قد .. أخذها . اما إيف ، فقد كانت على العكس متأثرة بأبيها ، كانت طبيعة
مستقيمة ومنطقية ؛ وكان النقاش معها يصبح متعة . « من أجل هذا ، لا
اريدهم ان يفسدوها لي . » ورفع السيد داربيدا عينيه ؛ كان يريد ان يرى
ملامح ابنته الدقيقة الذكية . ولكنه خاب : إن هذا الوجه الذي كان في الماضي
عاقلاً وشفافاً الى حدّ بعيد ، أصبح الآن معتكراً وكثيفاً . على ان إيف تظل
ابدأ جميلة جداً . وقد لاحظ السيد داربيدا انها كانت قد خضبت وجهها
بعناية كبيرة ، بل بأبته تقريباً . كانت قد زرقت جفنيها وأمرت « الريميل »

على أهدابها . وقد عاد هذا المكياج الكامل العنيف بشعورٍ شاقٍ على أبيها ،
فقال لها :

— إن هذا الخضاب قد جعل لونك أخضر . وأنا أخشى أن تمرضي .
وما أشدّ ما تخضّبين الآن ! انت التي كنت شديدة التحفّظ .

فلم تجب ايف ، وتأمّل السيد داربيدا في ارتباك ذلك الوجه الفاقع المنهك ،
تحت كتلة الشعر الأسود الثقيلة . وفكر بأنها تشبه ممثلة . « بل انا اعرف من
تشبه حقاً . إنها تشبه تلك المرأة ، تلك الرومانية التي مثلت « فيدر » بالفرنسية
عند حائط « اورانج » . وكان أسفاً أنه قد سبق ان ادلى لها بهذه الملاحظة
المزعجة : « لقد افلتت مني ! فالأفضل عدم إزعاجها من أجل شوّون صغيرة
كهذه . »

قال وهو يتسم :

— اعدرني ، انت تعرفين اني من أتباع الطبيعة . فانا لا أحب كثيراً
جميع تلك الدهون التي يلبصقها نساء اليوم بوجوههن . ولكني انا المخطيء ،
إن على المرء ان يعيش عصره .

فيسمت له ايف في ودّ . وأشعل السيد داربيدا سيكارته وسحب منها
عدة مجّات ، ثم بدأ يقول :

— سنثرث قليلاً يا بنيتي الصغيرة . هيا ، اجلسي واصغي إليّ بلطف ؛
يجب على الانسان ان يتق بأبيه العجوز .

قالت ايف : — بل افضل ان أبقى واقفة . ما الذي تريد ان تقوله لي ؟
قال السيد داربيدا في لهجة لا تخلو من جفاف :

— سأطرح عليك سؤالاً بسيطاً . الى اين سينتهي بك هذا كله ؟
فردّدت ايف مندهشة : — هذا كله ؟

— أجل ، كل شيء ، كل هذه الحياة التي صنعتها لنفسك . إسمعي ،
يجب الا تظنّي اني لا أفهمك (وكانت فكرة مشرقة قد جاءت) ولكن ما
تريدن ان تفعله يفوق القوى البشرية . انك تريدن ان تعيشي بالخيال وحده ،

أليس كذلك؟ انك لا تريدن الإقرار بأنه مريض؟ إنك لا تريدن ان تري
بيار اليوم، أليس كذلك؟ إنك لا ترين الا بيار الأمس .
واستطرد السيد داربيدا يقول :

— إن هذا يا عزيزتي الصغيرة، يا ابنتي الصغيرة، رهان يستحيل ان
تستمرى به. اسمعي، سأقص عليك قصة لعلك لا تعرفينها : حيناً كنا نسكن
في « سابل دولون »، وكنت أنت في الثالثة، تعرفت أمك على امرأة
صبيّة جذابة كان لها طفل رائع. وكنت تلعبين على الشاطئ مع هذا الطفل،
وكتما طويلين كئلاً تفاحات، وكنت خطيبته. وفيما بعد، بعد ان أقمنا
في باريس، ارادت امك ان ترى تلك المرأة الصبية، فأخبروها ان مصيبة
فظيحة قد نزلت بها : لقد دهست سيارة ابنها الجميل وقطعته. وقيل لامك :
« تستطيعين ان تريها، ولكن لا تحدثيها عن موت صغيرها، انها « لا تريد »
ان تصدق انه مات. » وزارتها امك فوجدت مخلوقة نصف معتوهة : كانت
تعيش كما لو ان طفلها ما يزال حياً؛ كانت تحدّثه وتضع صحنه على المائدة.
أجل، لقد عاشت في حالة من التوتر العصبي وجب معها، بعد ستة أشهر،
ان تُساق قسراً الى بيت للراحة مكثت فيه ثلاثة أعوام.

وأضاف السيد داربيدا وهو يهزّ رأسه :

— أجل يا صغيرتي. إن هذه أشياء مستحيلة. كان الأجدى ان تعرف
بالحقيقة في شجاعة. إذن لتألمت مرة واحدة، ثم أتى الزمن فمسح على جبينها
برفق. صدقيني ان ليس ثمة أفضل من النظر الى الامور مواجهة.
قالت ايف في جهد :

— انت مخطيء. فأنا أعلم ان بيار هو...

ولم تسعفها الكلمة. كانت واقفة باستقامة، وهي واضعة يديها على مسند
أريكة : وكان في أسفل وجهها شيء جافّ وقبيح. وسأل السيد داربيدا
بدهشة :

— نعم، وإذن؟

– إذن ماذا ؟

– انك ... ؟

قالت ايف بسرعة وبلهجة ضجيرة :

– احبه كما هو .

قال السيد داربيدا في قوة :

– هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح : انك لا تحبينه ، لا تستطيعين

ان تحبيه . إن المرء لا يستطيع ان يكنّ مثل هذا الإحساس إلاّ لكائن طبيعي سليم . انما انت تكنين الشفقة لبيار ، ولست اشكّ في ذلك ، ثم إنك بلا شك تحفظين ذكرى ثلاثة أعوام من السعادة انت مدينة له بها . ولكن لا تقولي انك تحبينه . فلن أصدقك .

فظلت ايف صامته وهي تحدق بالسجادة في هيئة غياب . وقال السيد

داربيدا ببرودة :

– تستطيعين ان تحبيني . ولا تحسبي ان هذا الحديث اقل مشقة لي منه لك .

– ولكنك لا تصدقني .

فصاح مغتاضاً : – اذا كنت تحبينه حقاً ، فانها مصيبة كبيرة لك ولي ولاملك

المسكينة ، لأنني سأقول لك شيئاً كنت أفضل ان أخفيه عليك : إن بيار سيسقط قبل مضيّ ثلاثة أعوام في الجنون الكامل ، وسيصبح كالحیوان .

ونظر الى ابنته بعينين قاسيتين : كان يأخذ عليها أنها اضطرته بعنادها الى

ان يصارحها بهذه الحقيقة الشاقة .

ولم تبد ايف حراكاً ، بل هي لم ترفع عينها ، وانما اكتفت بالقول :

– كنت أعرف ذلك .

فسألها مشدوهاً : – من أخبرك ذلك ؟

– فرانشو . أعرفه منذ ستة أعوام .

قال السيد داربيدا في مرارة :

— ولكنني أوصيته ان يراعيك في ذلك . وعلى كل حال ربما كان هذا أفضل . ولكن ينبغي أن تفهمي في هذه الحالة انه لن يُغفر لك ان تحتفظي بيار في البيت . إن المقاومة التي أبديتها مرصودة للإخفاق ، فمرضه لا يغفر . لو أن هناك ما يُفعل ، لو كان بالامكان إنقاذه بمختلف الوان العناية لما كان لديّ ما أعرّض به . ولكن انظري قليلاً : لقد كنت جميلة ، وذكية ومرحة ، وها انت تهدين نفسك بارادتك وبلا جدوى . حسناً ، لقد كنت تثيرين الإعجاب ، ولكن حسبك هذا ، لقد قمت بواجبك كلّه ، بل بأكثر من واجبك ، فالإلحاح في ذلك سيكون الآن لأخلاقياً . إن للمرء واجبات نحو نفسه يا ابنتي . ثم انك لا تفكرين بنا .
واستطرد يقول وهو يطرق كلماته طرّقاً :

— يجب ان ترسلي بيار الى مستشفى فرانشو ، ويجب ان تتركبي تلك الشقة التي لم تري فيها الا المصائب وان ترجعي الى قربنا . فاذا كانت لديك رغبة في ان تخدمي أحداً وان تواسي آلام الآخرين ، فان أمامك أمك . إن المسكينة تُعنى بها المرضات ، وستكون بحاجة الى ان تُحاط بالرعاية ، « وهي » تستطيع ان تقدّر ما ستفعلينه من أجلها وستكنّ لك الاعتراف بالجميل .
وساد صمت طويل . وسمع السيد داربيدا غناء بيار في الغرفة المجاورة ، وكان اقرب الى ان يكون زعيماً ثاقباً . ورفع السيد داربيدا عينيه الى ابنته :
— ما هو جوابك : لا ؟

قالت بهدوء : — سيقتي بيار معي . انني متفاهمة معه تماماً .

— شريطة القيام بالحماقات طوال النهار .

فابتسمت ايف وقذفت أباها بنظرة ساخرة غريبة ، تكاد تكون جدلة .

وفكر السيد داربيدا غاضباً : « هذا صحيح ، إنهما لا يفعلان غير ذلك .

إنهما يتامان معاً . »

وقال وهو ينهض :

— انت مجنونة كليّة .

فبسمت ايف بجزن وتمتت ، كأنما تحدث نفسها :
- ليس بالقدر الكافي .

- ليس بالقدر الكافي ؟ لا أستطيع ان اقول لك الا شيئاً واحداً يا بنيتي :
انك تخيفيني .

وقبلها على عجل ثم خرج . وفكر وهو يهبط السلم : « ينبغي ان
نرسل لها رجلين قويين يقتادان قسراً هذه النفاية المسكينة ويسمّراه تحت
« الدوش » من غير ان يسألاه رأيه . »

كان اليوم يوماً خريفياً جميلاً ، هادئاً ، لا أسرار فيه ؛ وكانت الشمس
تذهب وجوه المارة . وقد فوجيء السيد داربيدا ببساطة هذه الوجوه ؛ كان
فيها المدبوغ وفيها الأملس ، ولكنها جميعاً كانت تعكس سعادات وهموماً
مألوفة لديه . وقال في نفسه وهو يسلك جادة سان جرمان : « أنا أعرف
جيداً ما آخذه على إيف . انني آخذ عليها انها تعيش خارج البشري . إن يبار
ليس بعد كائناً بشرياً : فان ما تحيطه به من عناية وحب ، انما تحرم منه قليلاً
جميع هؤلاء الأشخاص . ليس لنا الحق بأن نمنع العطاء عن البشر . »
وكان يرمق المارة في ود ؛ كان يحب نظراتهم الجادة الصافية . وفي هذه
الشوارع التي تغمرها الشمس ، كان المرء يُحسّ نفسه بين الناس في أمان ،
كما لو انه وسط اسرة كبيرة .

وكانت سيدة حاسرة قد وقفت امام بضاعة معروضة في الهواء ، وهي
تمسك طفلة بيدها ، وسألتها الطفلة وهي تشير الى جهاز راديو :
- ما هذا ؟

قالت امها : - لا تمسّي شيئاً ؛ انه جهاز . يعمل موسيقى .
وبقيتا لحظة من غير ان تتكلما ، مأخوذتين . وانحى السيد داربيدا ،
عطوفاً ، نحو الطفلة ، وابتسم لها .

« لقد ذهب ». وكان الباب قد انغلق في صفقة خشنة ؛ وكانت ايف وحيدة في الصالون : « اودّ لو انه يموت » :

وتشجعت أصابعها على مسند الأريكة ، وهي تتذكر عيني أبيها . كان السيد داربيدا قد انحنى فوق بيار انحناءة صاحب اختصاص ؛ وكان قد قال له « إن هذا لذيذ ! » كمن يُحسن التحدث الى المرضى ؛ وكان قد نظر اليه ، فارتسم وجه بيار في أعماق عينيه الكبيرتين الحاذقتين . « انني اكرهه حين ينظر اليه ، حين افكر بأنه « يراه » .

وانزلت يدا ايف على طول الأريكة ، والتفتت نحو النافذة . كانت مبهورة ، بعد ان امتلأت القاعة بالنور الذي غمر كل شيء : فكان على السجادة دوائر صفراء ، وفي الهواء نثاراً من الغبار المُعَمي . وكانت ايف قد فقدت عادة هذا النور الشيطاني الذي كان يتسلل الى كل مكان ، وينظف الزوايا ، ويدلك الأثاث ويجعله يلتمع كأنه ربة منزل ماهرة . على انها تقدمت حتى النافذة ورفعت الستار الحريري الذي كان يتدلى على الزجاج . وفي تلك اللحظة ، كان السيد داربيدا يخرج من البناية ، فلمحت ايف فجأة كفيه العريضتين . ورفع رأسه فنظر الى السماء . وهو يطرف بعينه ، ثم ابتعد في خطوات كبيرة ، كأنه شاب . وفكرت ايف : « انه يجهد نفسه . وستأخذه عما قليل شكّة خاصرته . » وكفّت عن ان تكرهه : شيء قليل جداً كان مقيماً في ذلك الرأس ، ليس اكثر من همّ ضئيل بان يبدو شاباً . بيد ان الغضب عاودها حين رأته ينعطف عند زاوية جادة سان جرمان ويختفي . « انه يفكر في بيار » . كانت بضعة من حياتهما قد أفلتت من الغرفة الموصدة وأخذت تتسكّع في الشوارع ، وتحت الشمس ، وبين الناس . « أليس من الممكن اذن ان ننسى ابدأ ؟ »

كان شارع باك شبه خال . وكانت سيدة عجوز تعبر الطريق بخطى صغيرة ؛ ومرّت ثلاث فتيات وهنّ يضحكن . ثم رجال ، رجال أقوياء وجادون

يحملون محافظ ويتحدثون فيما بينهم . « الناس الطبيعيون » ، هكذا فكرت ايف ، وقد أدهشها ان تجد في نفسها مثل هذه القدرة على الحقد . وعدت امرأة جميلة سميئة امام رجل أتيق عدواً متمهلاً . فأحاطها بذراعيه وقبلها في فمها . وضحكت ايف ضحكة قاسية ثم أرخت الستار .

كان يبار قد كفت عن الغناء ، ولكن امرأة الطابق الثالث كانت قد جلست إلى البيانو ، وكانت تعزف « دراسة » لشوبان . وأحست ايف أنها تستعيد بعض هدونها ، فخطت خطوة نحو غرفة يبار ، ولكنها ما لبثت ان توقفت واستندت الى الجدار في شيء من الضيق : ككل مرة تغادر فيها الغرفة ، أخذها ذلك الجزع الذي يعترها إذ تفكر بأن عليها ان تعود إليها . ومع ذلك ، فقد كانت تعرف جيداً أنها لن تستطيع ان تعيش في مكان آخر : كانت تحب الغرفة . وأجالت نظرها ، في فضول بارد ، كأنها تود ان تكسب بعض الوقت ، في أرجاء تلك القاعة التي لا ظلال فيها ولا رائحة والتي كانت تنتظر فيها ان تستعيد طمأنينتها . « لكأنه صالون طيب أسنان » كانت الأرائك الحريرية الوردية والديوان والطاولات الصغيرة بسيطة محتشمة ، أبوية بعض الشيء ؛ أصدقاء طيبون للإنسان . وتصورت ايف ان رجالاً رصينين يرتدون أقمشة فاتحة ، شبيهين كل الشبه بأولئك الذين رأتهم من النافذة ، يدخلون الصالون وهم يتابعون محادثة مبدوءة . ولم يقفوا لكي يتعرفوا لحظة على الأمكنة ، بل كانوا يتقدمون بخطوة ثابتة نحو وسط القاعة ؛ وكان أحدهم يترك يده خلفه كأنها التلم تلامس الوسائد والحاجات على الطاولات من غير ان تنتفض لهذه الملامسات . وحين كان هؤلاء الرجال الواقفون يلمسون بقطعة من الأثاث في طريقهم ، لم يكونوا ينعطفون ليتجنبوها ، بل كانوا يغيرون مكانها في هدوء . وجلسوا أخيراً ، وهم ما يزالون غارقين في حديثهم ، من غير ان يلقوا حتى نظرة واحدة فيما خلفهم . وفكرت ايف : « صالون لرجال طبيعيين . » وكانت تحدق في قبضة الباب الموصل ، فيما الضيق يضغط على حنجرتها : « يجب أن أذهب إليه . اني لا اتركه قط

مثل هذه المدة الطويلة . « يجب فتح هذا الباب : ستقف إيف بعد ذلك على العتبة ، محاولةً ان تعودَ عينيها على العتمة ، وستدفعها الغرفة بكل قواها . ينبغي أن تنتصر إيف على هذه المقاومة ، وان تنفذ حتى قلب القاعة . وأخذتها فجأةً رغبةً غنيفةً بأن ترى بيار ؛ كان يودّها ان تسخر معه من السيد داربيدا . ولكن بيار لم يكن بحاجة اليها ؛ ولم تكن إيف تستطيع ان تتنبأ بالاستقبال الذي كان يحفظه لها . وفكرت فجأةً ، في شيء من الكبرياء ، انها لم يبق لها بعدُ اي مكان . « إن الطبيعيين لا يزالون يظنون اني منهم . ولكني لن أستطيع ان أبقى ساعة بين ظهرانيهم . اني بحاجة لأن أعيش هناك ، في الجانب الآخر من هذا الجدار . ولكنهم هناك لا يريدوني . »

كان تغييرٌ عميق قد تمّ فيما حولها .. كان النور قد شاخ وأدركه المشيب . كان قد ثقُل ، كماء آية للزهور لم يُغيّر منذ الأمس . وكانت إيف تجد في هذا النور الذي شاخ على الأشياء كتابة كانت قد نسبتها منذ وقت طويل : كتابة أصيل خريفي يلفظ أنفاسه . وكانت تنظر فيما حولها مترددة ، شبه خجلة : ما أبعدها كله ! لم يكن في الغرفة نهارٌ ولا ليل ، ولا فصل ولا كتابة . وتذكّرت بغموض فصولاً خريفية قديمة جداً ، يرجع عهدا الى حدائتها ، ثم تصلّبت فجأةً : كانت تخاف الذكريات .

وسمعت صوت بيار :

— أغات ، اين انت ؟

فصاحت : — اني قادمة .

وفتحت الباب ، ودلفت إلى الغرفة .

أفغمت رائحة البخور منخريها وفمها بينما كانت تحمق بعينيها وتمد يديها الى امام — ولم يكن العطر والعتمة يشكّلان بعدُ في نظرها ، منذ وقت طويل ، الا عنصراً واحداً ، حريفاً ومخملياً ، بسيطاً وأليفاً كالماء والهواء والنار — واقتربت بجذر نحو لطخة ممتعة كانت تبدو وكأنها عائمة في الضباب . كان

هذا وجه ييار، وقد ذاب ثوبه (فهو منذ أصبح مريضاً يرتدي السواد) في الظلام . وكان ييار قد قلب رأسه إلى الورا وأغمض عينيه . كان جميلاً . ونظرت ايف الى أهدابه الطويلة المثنية ، ثم جلست الى قربه على الكرسي الواطئة . وفكرت : « لكأنما هو يتألم » . واعتادت عيناها رويداً رويداً على العتمة . فانبثق المكتب أولاً ، ثم السرير ، ثم حاجات ييار الشخصية ، المقصّ وانا الصمغ ، والكتب ، والحشائش التي كانت تغطّي السجادة قرب الأريكة .

— اغات ؟

كان ييار قد فتح عينيه وأخذ ينظر إليها وهو يتسم . وقال :
— اتدرين ... الشوكة ؟ لقد فعلت ذلك لأخيف صاحبنا . فهي لم تكن تشكو شيئاً « تقريباً » .

فتلاشت مخاوف ايف وضحكت ضحكة خفيفة ، وقالت .
— لقد نجحت نجاحاً كبيراً ، فقد اثرت جنونه تماماً .

فبسم ييار :

— هل رأيته ؟ لقد قلبها عدة مرات وكان يمسكها بكلتا يديه . الحقيقة انهم لا يعرفون ان يأخذوا الأشياء . انهم يقبضون عليها .
قالت ايف : — هذا صحيح .

و ضرب ييار راحة يده اليسرى بسبابة يده اليمنى ضرباً خفيفاً :
— انهم يأخذون الأشياء بهذه . هم يقربون أصابعهم ، وحين يقبضون على الشيء ، يطبقون راحتهم فوقه ليخنفوه .
كان يتكلم بصوت سريع ومن أطراف شفّتيه ؛ كان يبدو متبرماً ؛ وقال أخيراً :

— انني أتساءل عما يريدون . لقد سبق لهذا الشخص أن جاء . فلماذا أرسلوه لي ؟ اذا شاءوا ان يعرفوا ما الذي أفعله ، فليس عليهم الا ان يقرأوه على الشاشة ، بل انهم ليسوا بحاجة إلى ان يتحركوا من بيوتهم . انهم يرتكبون الأخطاء . صحيح انهم يملكون القدرة ، ولكنهم يرتكبون الأخطاء . اما

انا فلا ارتكب أيّ خطأ ، وهذا حظّي .
وأضاف يقول : « هوفكا ، هوفكا . »
وكان يحرك يديه الطويلتين امام جييته :
— القحبة ! هوفكا بافكا سوفكا . هل تريد المزيد من ذلك ؟
فسألت ايف : — أهو الجرس ؟
— نعم . لقد ذهب .
واستطرد في قسوة :

— إن ذلك الشخص رجل مأور . انت تعرفينه . لقد رافقته الى الصالون .
فلم تجب ايف . وسأل بيار :
— ما الذي كان يريد ؟ لا بدّ انه أخبرك بذلك .
فرددت لحظة ثم أجابت بقسوة :
— كان يريد ان يُحجر عليك .

كان الحدر يبدو على بيار حين كانت الحقيقة تُقال له بهدوء ؛ فقد كان
ينبغي ان تُلقى عليه بعنف لتشريد الظنون وشلّها . وقد كانت ايف تفضّل
ان تكون معه شرسة على ان تكذب عليه : فاذا كانت تكذب عليه ويبدو
انه يصدقها ، لم يكن يسعها ان تكبت إحساساً خفيفاً بالتفوق ، مما كان يعود
عليها بشعور الاشمزاز من نفسها .
وردّد بيار في سخرية :

— يحجر عليّ ! إنهم يضلّون . ما عساها ان تفعل لي ، الجدران ؟ ربما
كانوا يعتقدون أنّ هذا سيوقفني . انني لأتساءل أحياناً عما اذا لم يكن هناك
عصابتان . الحقيقة هي عصابة الزنجي . ثم عصابة المخريين التي تسعى الى
حشر أنفها هنا والتي ترتكب حماقة فوق حماقة .
وجعل يُقفز يده على ذراع الأريكة ، ثم تأملها بهيئة فرحة :
— الجدران ؟ إن من الممكن خرقها ...
والتفت نحو ايف في فضول وسألها :

— انه لن يُحجر عليك .

فهز كتفيه :

— ما كان ينبغي ان تقولي ذلك . لقد ارتكبت انت ايضاً غلطة ، الا ان تكوني قد تعمّدت هذا . يجب ان تركيهم يكشفون اوراقهم .
وصمت . وخفضت ايف رأسها في حزن : « انهم يقبضون عليها ! »
على الأشياء قبضاً؟ عبثاً ما اراقب نفسي ، فانا أحسب ان معظم حركاتي تزعجه . ولكنه لا يتحدث عن ذلك . « وأحسّت نفسها فجأة مسكينة بائسة ، شأنها يوم كانت في الرابعة عشرة وكانت السيدة داربيدا الخفيفة الناشطة تقول لها : « إن من يراك يعتقد أنك لا تعرفين ما تصنعين بيديك . » لم تكن تجرؤ على ان تقوم بحركة ، وفي تلك اللحظة بالذات أخذتها رغبةٌ لا تُقاوم بأن تغير جلستها ، فردّت قلميها على مهل تحت كرسيها ملامسةً السجادة بلطف . وكانت تنظر الى المصباح على الطاولة — المصباح الذي كان يبار قد دهن قاعدته باللون الأسود — وطاولة الشطرنج . ولم يكن يبار قد ترك على الرقعة إلا البيادق السود . وكان ينهض أحياناً فيتقدم حتى الطاولة ويأخذ البيادق واحداً واحداً في يديه . وكان يتحدث اليها ويناديها « صواربخ » فكانت تبدو وكأنها تنتفض بحياة صماء بين أصابعه . وحين كان يضعها من جديد ، كانت ايف تذهب فتلمسها بدورها (وكان يأخذها شعور بأنها تثير الضحك بعض الشيء) :
فاذا هي تعود قطعاً صغيرة من الخشب الميت ، ولكن كان يبقى عليها شيء ما مبهم وغير قابل للالتقاط ، شيء ما كالحاسة . وفكرت : « انها اشياؤه ، فليس لي في الغرفة شيء بعدُ على الإطلاق . » كانت قد ملكت في الماضي بعض الأثاث : المرأة وطاولة الزينة المغطاة بصفائح معدنية ، وكانت قد ورثتها عن جدتها وكان يبار يسميها مازحاً طاوك « لك » . كان يبار قد جلبها معه : فليبار وحده كانت الأشياء تُرعى وجهها الحقيقي . وقد كان بوسع ايف ان تنظر اليها ساعات : فكانت تبذل عناداً سيئاً لا يهن من أجل تخيب

ظنّها ، ومن أجل اعطائها مظهرها وحده - كما هو الشأن مع الدكتور فرانشو والسيد داربيدا . وقالت في ضيق : « غير اني مع ذلك ، لا أراها بعد كما يراها أبي تماماً . ليس ممكناً أن أراها تماماً مثله . »

وحرّكت ركبتيها قليلاً : كانت ساقاها منمّلتين . وكان جسمها متصلباً متوتراً ، وكان يولمها ؛ كانت تشعر به حياً أكثر مما ينبغي ، وقحاً : « اودّ لو اكون غير مرئية وان أبقى هنا ؛ اني زائدة على اللزوم في الغرفة . » وأدارت رأسها قليلاً ونظرت الى الجدار فوق بيار ، فقرأت عليه تهديدات مكتوبة . كانت ايف تعرف ذلك ، ولكنها لم تكن تستطيع قراءتها . وكانت تنظر غالباً الى الورود الضخمة الحمر المرسومة على ورقة الجدار ، حتى تأخذ في الرقص تحت ناظريها . كانت الورود تشتعل في العتمة . وكان التهديد مرسوماً ، غالب الأحيان ، قرب السقف ، فوق السرير الى الجهة اليسرى : ولكنه كان يتنقل أحياناً . « يجب ان أنهض . اني لا أستطيع ... لا أستطيع ان أبقى جالسة مدة أطول . » وكان على الجدار كذلك اسطوانات بيض تشبه قطعاً من البصل . وقد استدارت الاسطوانات على نفسها ، فأخذت يدا ايف ترتجفان : « إن هناك لحظات أصبح فيها مجنونة . » وفكرت في مرارة : « ولكن لا ، اني « لا أستطيع » ان أصبح مجنونة . كل ما هناك ان أعصابي تثور . »

وفجأة ، أحسّت بيد بيار على يدها . وقال بيار في رقة :
- أغات .

كان يبسم لها ، ولكنه كان يمسك يدها بطرف أصابعه في نوع من النفور ، كما لو انه قد أمسك بعقرب من ظهره لكي يتفادى أسنانه . وقال :
- أغات . كم أودّ ان أثق بك .

فأغمضت ايف عينيها وارتفع صدرها : « يجب ألا اجيب بشيء ، وإلاّ فسيفقد ثقته ويمتنع عن الكلام . »
وكان بيار قد ترك يدها ، وقال لها :

– احبّك كثيراً يا أغاث ، ولكني لا أستطيع ان أفهمك . لماذا تبقيين طوال الوقت في الغرفة ؟

فلم تجب ايف .

– قولي لي لماذا ؟

قالت في جفاء :

– تعرف جيداً اني احبّك .

قال ييار : – انني لا أصدقك . لماذا تراك تحبيني ؟ لا بدّ ان أثير لديك

الإشمزاز : انني مسكون .

وابتسم ، ولكنه اتخذ فجأة هيئة الجدل وقال :

– إن بيني وبينك جداراً . انني أراك وأحدثك ، ولكنك قائمة في الجهة

الآخرى . ما الذي يحول دون ان يحبّ أحدنا الآخر ؟ يخيّل إليّ ان الأمر

كان أسهل في الماضي . في هامبورغ .

قالت ايف بحزن :

– نعم .

هامبورغ دائماً . ابدأ لا يتحدث عن ماضيها الحقيقي . لم يسبق لإيف

ولا له ان كانا في هامبورغ .

– كنا ننزه بمحاذاة القنوات . كان هناك قارب ، أتذكرين ؟ وكان

القارب أسود ؛ وكان على الجسر هنالك كلب .

كان يخلّق بالتدرّج ، وكان الزيف في هيئته .

– كنت امسك بيدك ، وكانت لك بشرة اخرى . كنت اصدق كل ما

كنت تقولينه لي .

ثم صرخ : « اسكتي ! »

وأصغى لحظة ، ثم قال بصوت مكتئب :

– انها على وشك ان تأتي .

فانتفضت ايف :

— انها على وشك ان تأتي ؟ لقد كنت أظنّ انها لن تأتي بعدُ أبداً .
منذ ثلاثة أيام ، كان بيار أهدأ منه الآن ؛ لم تأت التماثيل . وكان بيار
يخاف التماثيل خوفاً فظيماً ، بالرغم من انه لا يعترف بها ابداً . اما ايف ،
فلم تكن تخافها : غير انها حين كانت تأخذ في الطيران في الغرفة ، وهي تطنّ ،
كانت تخاف من بيار .

قال بيار : — أعطيني التركيبة .

فنهضت ايف وأخذت التركيبة : كانت عبارة عن مجموعة من قطع كرتون
الصقها بيار وكان يستعملها ليطرد التماثيل . وكانت التركيبة تشبه العنكبوت
وكان بيار قد كتب على احدى قطع الكرتون : «السلطة على الفخ » وعلى
قطعة أخرى «أسود » . وقد رسم على ثالثة رأساً ضاحكاً مع عينين مجعدتين :
صورة فولتير . وتناول بيار التركيبة وتأمّلها بهيئة كشيبة ثم قال :
— انها لا يمكن ان تفيدني بعد .

— لماذا ؟

— لقد قلبوها .

— اصنع تركيبة اخرى .

فقال من بين أسنانه :

— انك تتمنين ذلك كثيراً !

كانت ايف مغتظة من بيار . « انه يعرف دائماً موعد مجيئها ؛ فكيف
يتم له ذلك ؟ إنه لا يخطيء أبداً . »

كانت التركيبة تتلوى من أصابع بيار بحالة تدعو الى الرثاء : « إنه يجد
دائماً أسباباً صالحة لعدم استعمالها . حين جاءت يوم الأحد ، كان يدّعي انه
قد شتتها ، ولكنني كنت اراه خلف دلو الصمغ ، ولم يكن يستطيع ألاّ يراها .
واني لأتساءل عما اذا لم يكن « هو » الذي يجتذبها . » لم يكن المرء يستطيع
ان يعرف قط اذا كان صادقاً كل الصدق . كانت ايف تشعر ، في
بعض اللحظات ، بأن بيار كان مغموراً ، رغماً عنه ، بفيض آسن من الأفكار

والروى . غير ان ييار كان يبدو ، في لحظات أخرى ، وكأنه يخترع ويخترق .
« انه يتألم . ولكن الى اي حد » « يؤمن » بالتمثيل وبالزنجي ؟ انا أعرف على
اي حال ان التمثيل لا يراها ، وانما يسمونها فحسب ، وحين تمر ، يدير رأسه ؛
غير انه يقول انه يراها ؛ وهو يصفها . « وتذكرت وجه الدكتور فرانشو
المحمر : » ولكن جميع المعتوهين ، يا سيدتي العزيزة ، كذآبون ؛ وانت
تضيعين وقتك اذا شئت ان تميزي ما يشعرون به حقاً مما يدعون انهم يشعرون
به . « وانتفضت : « ما شأن فرانشو بهذا ؟ اني لن ابدأ في التفكير على
غراه . »

كان ييار قد نهض وذهب يرمي التريكية في سلة الأوراق . وتمتمت :
« اودّ ان افكر كما تفكر « انت » . وكان يمشي بخطى صغيرة ، على رؤوس
قدميه ، فيما هو يشدّ مرفقيه على خاصرتيه ، ليشغل أقلّ حين ممكن . وعاد
يجلس ونظر الى ايف نظرة مغلقة ثم قال :

— يجب ان ندهن الجدران بقشرة سوداء . فليس في هذه الغرفة قدرٌ
كافٍ من السواد .

وكان قد تراكم في الأريكة . ونظرت ايف بجزن الى الجسم النحيل ،
المستعدّ دائماً للانسحاب والانطواء : كان الذراعان والساقان والرأس تشبه
اعضاء قابلة للانكماش . ودقت الساعة السادسة ؛ وكان البيانو قد صمت .
وتنهدت ايف : لن تأتي التمثيل على الفور ، فينبغي انتظارها .

— أتريد ان أضيء النور ؟

كانت تفضّل ألا تنتظرها في الظلام . وقال ييار :

— افعلي ما تشائين .

فأضاءت ايف مصباح المكتب الصغير فغمر الغرفة ضباب أحمر . وكان
يار ينتظر هو ايضاً .

لم يكن يتكلم ، ولكن شفثيه كانتا تتحركان ، وكانتا تبدوان لطختين
معتمتين في الضباب الأحمر . وكانت ايف تحب شفثي ييار . لقد كانتا في

السابق مؤثرتين وشهوانيتين ؛ ولكنهما كانتا قد فقدتا شهوانيتهما . كانتا تنفرجان وهما ترتعشان قليلاً ثم تلتحمان بلا انقطاع ، وتنسحق احدهما على الاخرى لتنفصلا من جديد . كانتا وحدهما تعيشان ، في ذلك الوجه المغلق ؛ وكانتا تشبهان حيوانين خائفين . وكان بوسع بيار ان يدمدم طوال ساعات على هذا النحو من غير ان يخرج صوتاً من فمه ، وكانت ايف تستسلم غالباً لسحر هذه الحركة الصغيرة العنيدة . « اني احبّ فمه » كان قد انقطع تماماً عن تقبيلها ؛ كان يشمّز من التماس : لقد كان يلمس في الليل ، وكانت ايدي رجال قاسية وجافة تقرصه في كل جسمه ؛ وكانت ايدي نساء ذات اظفار طويلة جداً ، تلامسه ملامسات قدرة . وغالباً ما كان يأوي الى فراشه بكامل ثيابه ، ولكن الايدي كانت تنسلّ تحت ثيابه وتشدّ قميصه . وقد حدث له مرة ان سمع صوتاً يضحك ثم حطّت شفتان غليظتان على شفثيه . ومنذ تلك الليلة ، كفّ عن تقبيل ايف نهائياً .

قال بيار : - أغات ، لا تنظري الى فمي .

فخفضت ايف عينيها . وتابع في قحة :

- اني لا أجهل ان بوسع المرء ان يتعلم القراءة على الشفتين .

وكانت يده ترتجف على ذراع الأريكة . وقد امتدّت السبابة واقبلت تضرب ثلاث ضربات على الإبهام فتشنّجت الأصابع الاخرى : كان ذلك تعزيماً ؛ وفكرت : « ستبدأ القضية » . وكانت بها رغبة الى أن تأخذ بيار بين ذراعيها .

وأخذ بيار يتكلم بصوت عالٍ جداً ، بلهجة فخمة :

- هل تذكرين سان بولي ؟

ينبغي الاتجيب . فربما كان ذلك شركاً . ثم قال بلهجة راضية :

- لقد عرفتك هناك . وقد خطفتك من بحار دانمركي . وكنا على وشك

ان نقتل ، ولكني دفعت مصروف الشراب ، فركني آخذك . ولم يكن ذلك كله الا تمثيلاً .

« إنه يكذب ، لا يصدق كلمة مما يقول . هو يعرف اني لا أدعى آغات . اني اكرهه حين يكذب . » ولكنها رأت عينيه الثابتتين ، فذاب غضبها . وفكرت : « انه لا يكذب عليّ » ، ولكنه قد بلغ الحد الأخير . هو يشعر بأنها تقترب ؛ فهو يتكلم لكي يمتنع عن سماع نفسه . « وكان ييار يتشبث بكلتا يديه بذراعي الأريكة ؛ كان وجهه ممتعماً ؛ وكان يتسم . وقال : - إن هذه اللقاءات غريبة غالباً . ولكني لا اوئن بالمصادفات . اني لا أسألك من الذي أرسلك ، فأنا أعلم انك لن تجيبي . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت بارعة بما فيه الكفاية لتلطخيني .

كان يتكلم في مشقة ، بصوت ثاقب عجل . وكان ثمة كلمات لم يكن يستطيع النطق بها ، فكانت تخرج من فمه كمادة طرية شواء . - لقد اقتدتني في أثناء الحفلة الى العاب سيارات سود ، ولكن كان خلف السيارات جيش من العيون الحمر التي كانت تلتصق بمجرد ان أدير ظهري . أعتقد أنك كنت تومئين لها ، فيما انت متعلقة بذراعي ، ولكني لم اكن ارى شيئاً . كنت مستغرماً أكثر مما ينبغي بحفلات التتويج الكبرى .

كان ينظر امامه باستقامة ، مفتوح العينين على سعتهما . وأمرّ يده على جبينه بسرعة ، في حركة ضيقة ، من غير ان ينقطع عن الكلام : لم يكن يريد الانقطاع عن الكلام . وأضاف بصوت حاد :

- كانت تلك حفلة « تتويج الجمهورية » ، مشهد مؤثر في نوعه بسبب الحيوانات المختلفة التي كانت الجاليات ترسلها الى الحفلة . وكنت تحشين ان تضيبي بين القروود .

وردّ بصوت متكبّر ، وهو ينظر فيما حوله :

- قلت بين القروود . (وكان بوسعي ان اقول بين الزنوج ا) إن الطروح التي تنسلّ تحت الطاومات وتحسب انها لا تُرى ، انما كان نظري يكشفها ويسمّرها على الفور .

وصاح قائلاً :

— إن الأمر هو السكوت . السكوت . الجميع في أمكتهم وليستعدوا
لدخول التماثيل . إنه الأمر . ترالالا
كان يهدر ويضع يديه امام فمه بشكل القمع :
— ترالالا ، ترالالا لا !

وصمت ، فعرفت ايف ان التماثيل دخلت الى الغرفة . وكان واقفا
متصلاً ، ممتعاً وعلى وجهه علامات الاحتقار . وتصلبت ايف ايضاً وانتظر
الاثنان في صمت . وكان ثمة من يسير في المشى : انها ماري الخادمة ، ولا
شك في انها قد وصلت لساعتها ، وفكرت ايف : « يجب ان اعطيها مالا »
لشراء الغاز » ثم أخذت التماثيل تطير ؛ وكانت تمرّ بين ايف وبيار .
وقال بيار « هان » ثم قبع في الأريكة وهو يطوي ساقيه تحته . وكان
يصرف بصره ، ويقهقه بين الفينة والفينة ، ولكن قطرات من عرق كانت
تتألاً على جبينه . ولم تستطع ايف ان تتحمل رؤية ذلك الحد المتع ، وذلك
النم الذي كانت تكشيرة مرتجفة تشوّهه : فأغمضت عينيها . وأخذت
خيوط مذهبة تراقص في جوف جفنيها الأحمر ؛ كانت تحسّ نفسها
عجوزاً وثقيلة . وكان بيار غير بعيد عنها ، يتنفس بصخب . « انها تطير ،
انها تطنّ ؛ انها تنحني فوقه ... » وأحسّت بدغدغة خفيفة ، ومضايقة عند
كتفها وعند خاصرتها اليمنى . ومال جسمها غريزياً نحو اليسار كأنما ليتفادى
تماماً مزعجاً ، او كأنما ليدع لشيء ثقيلٍ أخرق ان يمرّ . وفجأة فرقت
الأرض الحشبية فأخذتها رغبةً مجنونة في ان تفتح عينيها وان تنظر الى اليمين
وهي تكنس الهواء بيدها .

ولكنها لم تفعل شيئاً ؛ بل احتفظت بعينيها مغمضتين وأخذتها فرحة
حامزة جعلتها ترتعش ؛ وفكرت : « انا ايضاً خائفة » . كانت كل حياتها
قد التجأت الى جنبها الأيمن . ومالت نحو بيار من غير ان تفتح عينيها . كان
حسبها ان تبذل جهداً صغيراً حتى تدخل للمرة الاولى هذا العالم المأساوي .

وفكرت : « اني خائفة من التماثيل » . وكان ذلك توكيداً عنيفاً أعمى ،
سحراً : كانت تريد لكل قواها ان تؤمن بحضور التماثيل ؛ وكانت تحاول
ان تجعل من الضيق الذي كان يشلّ خاصرتها اليمى حاسة جديدة ، لمساً .
كانت تحسّ بمرور التماثيل في ذراعها ، وفي خاصرتها ، وفي كتفها .

كانت التماثيل تطير منخفضة وعلى مهل ؛ وكانت تظنّ . وكانت ايف
تعلم ان هيتها كانت خبيثة وأنّ أهداباً كانت تخرج من الحجر حول عيونها ؛
ولكنها لم تكن تستطيع ان تتمثلها جيداً . وكانت تعلم ايضاً انها لم تكن بعدُ
حيةً تماماً وانما كانت شرائح من اللحم وقشورٌ دافئة تظهر على أجسامها
الكبيرة ؛ وكان الحجر ينقش عند أطراف أصابعها وراحاتها تتأكلها . ولم
تكن ايف تستطيع ان ترى هذا كله : كانت تفكر في بساطة بان نساء هائلات
كانت تندسّ بها ، عظيمةً خشنة ، بهيئة انسانية وبعناد الحجر الكثيف .
« ان التماثيل تنحني على بيار - وكانت ايف تبذل جهداً عنيفاً جداً حتى
ان يديها أخذتا ترتعشان - لأنها تنحني عليّ .. » وفجأةً ثلجتها صيحة هائلة .
« لقد لمستهُ » . وفتحت عينيها : كان رأس بيار بين يديه ، وكان يلهث .
وأحسّت ايف بأنها مرهقة ؛ وفكرت في ندم : « انها لعبة ؛ لم تكن الا
لعبة ، وانا لم أصدقها لحظة واحدة . وفي ذلك الحين ، كان يتألم ألماً حقيقياً . »
واسترخى بيار وتنفس بقوة . ولكن بوثويه ظللاً منبسطين بصورة
غريبة ؛ وكان يتفصّد عرقاً . وسألها :

- هل رأيتها ؟

- لا أستطيع ان أراها .

- هذا أفضل بالنسبة اليك ، فانها سوف تخيفك .

وأضاف يقول : - اما انا ، فقد تعودت .

وكانت يدا ايف ما تزالان ترتجفان ، وكان الدم قد صعد الى رأسها ،
وتناول بيار سيكارة من جيبه وحملها الى فمه ، ولكنه لم يشعلها . وقال :
- سيّان عندي ان أراها ، ولكني لا اريد ان تلمسي : فانا أخشى ان

تحدث لي بثوراً .

وفكر لحظة ثم سأل :

— هل سمعتها؟

قالت ايف : — نعم . لكأنّ أصواتها محرّك طائرة . (وكان يبار قد قال لها هذه العبارة بخدافيرها ، يوم الأحد السابق)
وابتسم يبار في شيء من التنازل ، وقال :
— انك تبالغين .

ولكنه ظلّ ممتقماً . ونظر الى يدي ايف :

— ان يديك ترتجفان . لقد أثر ذلك عليك يا عزيزتي المسكينة أغات .
ولكنك لست بحاجة الى الحقن : لأنها لن تعود قبل الغد .

لم تكن ايف تستطيع ان تتكلم ؛ وكانت اسنانها تصطك ، وكانت تخشى ان يلحظ يبار ذلك . وتأملها يبار طويلاً ، ثم قال وهو يهزّ رأسه :
— انك جميلة جداً . فيا للحسرة ! يا للحسرة حقاً !
ومدّ يده بسرعة فلامس أذنها :

— يا شيطاني الجميلة ! انك تضايقينني قليلاً ، فانت اجمل مما ينبغي :
وهذا ما يسليّني . ولو لم تكن القضية قضية استسلام ...
وتوقّف وهو ينظر الى ايف في دهشة ، ثم قال وهو يبسم بسمة غامضة :

— ليست هي هذه الكلمة .. لقد جاءت .. لقد جاءت . كانت تلك الكلمة الاخرى على طرف لساني .. فاذا بهذه تحتل مكانها . لقد نسيت ما كنت اقوله لك .

وفكر لحظة وهزّ رأسه قائلاً :

— كفى . اني سأنام .

واضاف بصوت طفولي :

— انت تعلمين يا أغات اني متعب . فانا لا أجد بعدُ أفكارني .

وقذف بسيكارته ونظر الى السجادة نظرة قلقة . ودست ايف وسادة
تحت رأسه ، فقال لها وهو يغمض عينيه :
- تستطيعين ان تنامي انت ايضا . فانها لن تعود .

« استسلام » . كان ييار نائماً ، وكان على وجهه نصف بسمة بريئة ؛
وكان رأسه مائلاً : فكأنه كان يريد ان يلامس خدّه بكتفه . ولم تكن ايف
على نعاس ، كانت تفكر : « استسلام » . كان ييار قد اتخذ فجأة هيئة البلادة
وسالت الكلمة خارج فمه ، طويلة مبيضة . وكان ييار قد نظر امامه في دهشة
كما لو انه كان يرى الكلمة ولكنه لا يتعرفها ؛ كان وجهه فاغراً ، طرياً ،
وكان يبدو وكأن شيئاً قد انكسر فيه . « لقد دمدم . وهذا ما حدث له
للمرة الاولى : والحق انه لاحظ ذلك ، وقال انه لم يكن يجد بعد أفكاره . »
وأرسل ييار أنه شهوانية صغيرة ورسمت يده حركة خفيفة . ونظرت اليه
ايف بقسوة : « ترى كيف سيفيق ؟ » كان ذلك يتأكلها . كان عليها ان
تفكر بيار ، كلما نام ، ولم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك . وكانت تخشى
ان يستيقظ بعينين مغتمتين فيأخذ في الدمدمة . وفكرت : « اني بليدة ،
فان هذا لن يبدأ قبل عام : هكذا قال فرانشو . » ولكن الضيق لم يكن يغادرها ؛
عام ؛ شتاء وربيع وصيف وبداءة خريف آخر . سوف تختلط هذه الخطوط
ذات يوم ، وسيبدعُ لفكّه ان يرتخي ، وسيفتح عينين دامعتين نصف فتحة .
وانحنت ايف على يد ييار فوضعت عليها شفيتها : « سأقتله قبل ذلك . »

أبجدار

دُفَعْنَا الى قاعة كبيرة بيضاء ، وأخذت عيناى تطرفان لأن النور كان يوجعهما . ثم رأيت طاولة وأربعة أشخاص خلف الطاولة ؛ كانوا بلباسٍ مدنيّ ، وكانوا ينظرون في أوراق أمامهم . وكان باقي المساجين قد حُشِرُوا في الداخل ، فوجب علينا أن نعبر القاعة كلها لتنضمّ إليهم . وكان فيهم عديدون ممن كنت أعرفهم ، وآخرون لا بدّ أنهم أجنب . اما الشخصان اللذان كانا أمامي ، فقد كانا أشقرين ، وكان لهما رأسان مستديران ؛ وكان أحدهما يشبه الآخر : وأتصوّر أنهما فرنسيان . وكان أقضرهما قامة يرفع بنطاله طوال الوقت : كان ذلك مثيراً للأعصاب .

وقد استمرّ ذلك طوال ثلاث ساعات ؛ كنت محبلاًّ منهكاً ، وكان رأسي فارغاً ؛ ولكن القاعة كانت مدفأة على نحو جيّد ، وكنت أجد هذا لذيذاً : فان أربعاً وعشرين ساعة كانت قد انقضت علينا ونحن نرنجف برداً . وكان الحرس يفتادون المساجين أمام الطاولة واحداً بعد الآخر . فكان الأشخاص الأربعة يسألونهم آنذاك عن أسمائهم ومهنتهم . وفي أكثر الأحيان كانوا لا يذهبون الى أبعد من ذلك - او أنهم كانوا يطرحون سوألاً من هنا او من هناك : « هل شاركت في عملية تخريب الذخائر ؟ » او : « اين كنت صباح يوم ٩ وماذا كنت تفعل ؟ » ولم يكونوا يُصغون الى الأجوبة ، او لم يكن يبدو عليهم ذلك على الأقل ؛ كانوا يصمتون لحظة وينظرون باستقامة أمامهم ثم يأخذون في الكتابة . وقد سألوا « نوم » هل من الصحيح انه كان يتخدم في

«الفرقة» الدولية : ولم يكن بوسع نوم ان يقول العكس بسبب الاوراق التي وُجِدَت في سترته . أما «جوان» فلم يسألوه عن شيء ، ولكنهم كتبوا وقتاً طويلاً بعد أن أدلى لهم باسمه . وقال جوان :

— إن أخي جوزيه هو الفوضوي . وأنتم تعلمون جيداً أنه ليس هنا بعد .
أما أنا ، فلا أنتهي الى أي حزب ، ولم يسبق لي قط ان تعاطيت السياسة .
فلم يجيبوا . وقال جوان كذلك :

— انني لم أفعل شيئاً . ولا اريد ان أدفع ثمن ما فعله الآخرون .
وكانت شفتاه ترتعشان . وأسكته أحد الحرس ثم اقتاده . وجاء بعد ذلك دوري :

— هل تُدعى بابلو ايبباتا ؟
فأجبت أن نعم .

ونظر الرجل الى اوراقه وقال لي :
— اين هو رامون غري ؟
— لا ادري .

— لقد خبأته في بيتك من ٦ الى ١٩ ؟
— لا .

فكتبوا لحظة ، ثم أخرجني الحرس .
وفي المر ، كان نوم وجوان ينتظران بين حارسين . وأخذنا نمشي .
وسأل نوم أحد الحارسين :
— وإذن ؟

فقال الحارس : — ماذا ؟
— اهو استجواب ام محاكمة ؟
فقال الحارس :
— بل كانت هي المحاكمة .

— وما الذي سيفعلون بنا إذن ؟

فأجاب الحارس بجفاء :

— ستُبلَّغون الحكم في زنزاناتكم .

وكان ما يعتبر زنزانة أحد أقبية المستشفى . وقد كان البرد فيه فظيماً بسبب تيارات الهواء . وكنتاً طوال الليل نرتجف برداً ، ولم يكن الوضع خيراً من ذلك في أثناء النهار . وكنت قد قضيت الايام الخمسة السابقة في حبس بالأبرشية يرجع عهده بلا شك الى القرون المتوسطة : ولما كان ثمة كثير من المساجين وقليل من الحيز، فقد رُكنوا كيفما اتفق . ولم أكن أسفاً على محبسي : فانا لم اكن أشكو فيه من البرد ، وانما كنت فيه وحدي ، وكان ذلك محققاً مع مرور الزمن . واما في القبو ، فقد كان لي رفاق .

لم يكن جوان يتكلم : فقد كان خائفاً ، ثم إنه كان أصغر سنّاً من ان يكون له موقف حازم . اما توم ، فقد كان متحدثاً بارعاً ، وكان يتقن الاسبانية . وقد كان في القبو مقعد خشبيّ طويل وأربع وسائل من قش . ولقد جلسنا حين أعادونا اليه وجعلنا ننتظر في صمت . وقال توم بعد لحظة :

— إننا هالكون .

فقلت : — وهذا هو رأيي كذلك ، ولكني أظنّ أنهم لن يفعلوا شيئاً

للصغير .

قال توم : — ليس لديهم ما يأخذونه عليه . كل ما في الأمر انه شقيق

مناضل .

ونظرت الى جوان : ولم يكن يبدو عليه انه يسمع . واستطرد توم يقول :

— أتدري ماذا يفعلون في ساراغوس ؟ إنهم يُضجعون الأشخاص في

الطريق ويمرّون فوقهم بشاحناتهم . لقد أنبأنا بذلك مراكشي فارّ . وهم

يقولون أنهم يفعلون ذلك توفيراً للذخيرة .

فقلت : — ولكن هذا لا يوقر البنزين .

وكنت مغتاضاً من توم : فما كان ينبغي له ان يقول هذا . وقد أضاف يقول :

— لقد كان هناك ضباط يتزهون في الطريق ويراقبون ذلك ، وأيديهم في جيوبهم ، وهم يدخنون السكاير . هل تعتقد أنهم سيُجهزون على أولئك الأفراد؟ دعك من هذا ! لأنهم يدعونهم يزعمون ويصرخون . وقد يستمر ذلك ساعة في بعض الأحيان . وكان المراكشي يقول إنه كاد في المرة الأولى يهلك .

قلت : — لا أحس أنهم سيفعلون ذلك هنا . إلا إذا كانوا مفتقرين حقاً الى اللخيرة .

وكان النهار يدخل من أربعة منافذ ومن كوة مستديرة فُتحت في السقف الى اليسار ، وكانت تطلّ على السماء . ومن هذه الفتحة المستديرة ، التي تُغلق عادةً بباب صغير ، كان الفحم يُلقى الى القبو . وقد كان تحت الكوة تماماً كومة كبيرة من غبار الفحم ، وكان معدّاً من قبل لتدفئة المستشفى ، ولكن المرضى كانوا قد أُجّلوا ، منذ بدء الحرب ، فظلّ الفحم قائماً هناك بلا استعمال ، حتى ان المطر كان يسقط عليه بعد أن نسي أحدهم إغلاق الباب للصغير .

وأخذ توم يرتجف ، وقال وهو يشتم :

— اني ارتجف . إن الرعشة تعاودني .

ونفض وأخذ يقوم بحركات رياضية . وكان قميصه ينفث عن صدره الأبيض المُشعر لدى كل حركة . وقد تمدّد على ظهره ، ورفع ساقيه في الهواء ، وقام بحركة المqvص : وكنت ارى مؤخرته الضخمة ترتجف . كان توم قوياً شديداً البأس ، ولكنه كان يملك كثيراً من الشحم . وكنت افكّر أن رصاص بندقية او رؤوس حراب لن تلبث ان تنغرس في هذه الكتلة من اللحم الطري ، كما تنغرس في قطعة من الزبدة . ولم يكن ذلك يحدث لدي من الأثر كما لو انه كان هزيبلاً .

لم أكن أشكو البرد تماماً ، ولكني كفتت عن الإحساس بكتفي وذراعي . وكان يتناوب بين الفينة والفينة شعور. بأن شيئاً ما ينقصني ، فأبدأ في البحث

عن سترتي فيما حولي ، ثم أتذكّر فجأةً أنهم لم يعطوني سترة . وكان ذلك شاقاً . لقد أخذوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ، ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا - وهذه البناطيل القماشية التي كان المرضى في المستشفى يرتدونها في إبتان الصيف . ونهضت نوم بعد فترة ، فجلست الى جانبي وهو يلهث .

- هل عاد لك الدفاء ؟

- يلعن دينه ، كلا . ولكنني ضيّقت الأنفاس .

وحوالي الساعة الثامنة مساء دخل مقدم مع كتابيين . وكانت بيده ورقة . وقد سألت الحارس :

- ما هي أسماء هؤلاء الثلاثة ؟

فقال الحارس : - ستينوك وايباتا وميربال .

فوضع المقدم نظارته وحدّق في لائحته :

- ستينوك .. ستينوك .. هوذا . لقد حُكِم عليك بالموت . وستُرمى

بالرصاص صباح الغد .

ونظر مرة اخرى ثم قال :

- والآخران كذلك .

قال جوان : - هذا غير ممكن . انا لا .

فنظر اليه المقدم نظرة اندهاش :

- ما اسمك ؟

فقال : - جوان ميربال .

قال المقدم : - ان لاسمك مقيد هنا . لقد حُكِم عليك .

فقال جوان : - انني لم أفعل شيئاً .

فهزّ المقدم كتفيه وانفتل نحو نوم ونحوي :

- هل أنتما من سكان الباسك ؟

- ليس فينا من هو من سكان الباسك .

فبدا عليه الإنزعاج :

– لقد قيل لي إن هناك ثلاثة باسكيين . ولن أضيع وقتي في الجري وراءهم .
وإذن ، إنكم بالطبع لا تريدون كاهناً ؟

فلم نجب . وقال :

– سيأتي الساعة طبيب بلجيكي . وهو يحمل إذناً بقضاء الليل معكم .
وأدى التحية العسكرية وخرج .

قال توم : – ما الذي كنت أقوله لك ؟ إننا هالكون .

قلت : – نعم . وهذا فظيع بالنسبة للصغير .

كنت أقول ذلك لأكون عادلاً ، ولكني لم أكن أحبّ الصغير . كان له
وجهٌ مفرط الدقة ، وكان الخوف والألم قد شوّهاه ولويا جميع ملامحه .
منذ ثلاثة أيام كان ما يزال صبيّاً أقرب الى اللطف والرفقة ، مما كان جديراً
بأن يروق ؛ اما الآن ، فقد كان يشبه طابطة قديمة ، وكنت أفكر بأنه لن يعود
شاباً أبداً ، حتى ولو أطلق سراحه . ولم يكن بالأمر السيء ان يُعطى بعض
الشفقة ، ولكن الشفقة تثير اشمزازي ؛ إنه بالأحرى يتفرفني . ولم يكن قد
قال شيئاً آخر بعد ، ولكنه كان قد أصبح رمادي اللون : كان وجهه ويده
رمادية . وقد عاد يجلس وهو ينظر الى الأرض بعينين مستدبرتين . وكان توم
ذا قلب طيب ، وقد شاء ان يأخذ بذراعه ، ولكن الصغير تخلّص منه بعنف
وعلى وجهه تكشيرة .

وقلت له بصوت منخفض :

– دعنه ، فأنت ترى جيداً أنه سيأخذ في الزعيق .

فأطاع توم على مضض ؛ لقد كان يودّ لو يؤاسي الصغير ، فيشغله ذلك
ويصرفه عن التفكير بنفسه . غير أن ذلك كان يزعجني : إنه لم يسبق لي قط
ان فكرت بالموت لأن فرصة ذلك لم تمثل امامي ؛ اما الآن ، فان الفرصة
ماثلة هنا ، ولم يكن ثمة ما يُعمل غير التفكير بذلك .

وأخذ توم يتكلم ، فسألني :

– هل قتلت أشخاصاً ، انت ؟

فلم أجب . فبدأ يشرح لي انه قتل ستة منذ مطلع شهر آب ؛ ولم يكن مطلعاً على الوضع ، وكنت أرى جيداً انه لم يكن « يريد » ان يطلع عليه . وانا نفسي لم أكن أنحقت كل التحقتي ، وكنت أتساءل عما اذا كانوا يتألمون كثيراً ، وافكر بالرصاصات وأتصور مطرها المحرق عبر جسمي . كل ذلك كان خارج المسألة الحقيقية ، ولكنني كنت هادئاً : كان امامنا الليل بطوله لكي نفهم . وقد كفّ نوم بعد برهة عن الكلام ، فنظرت اليه من زاوية عيني ؛ فرأيت انه قد أصبح رمادي اللون ، هو أيضاً ، وان هيأته كانت بائسة ، فقلت لنفسي : « لقد بدأ الأمر » . وكان الليل قد هبط تقريباً ، وكان شعاعٌ كاب يتسرّب عبر الكوى وكومة الفحم فيُحدث لطفة ضخمة تحت السماء ؛ ومن ثقب السقف ، كنت قد بدأت ارى نجمة : سيكون الليل صافياً ومثلجاً .

وفتح الباب ودخل حارسان . وكان يتبعهما رجل أشقر يرتدي ثوباً عسكرياً صوفي اللون ؛ وقد حيّانا وقال :

— اني طيب . ولديّ إذنٌ بأن ألازمكم في هذه الظروف الشاقة .

وكان له صوت عذبٌ متميّز . وقد قلت له :

— ماذا اتيت تفعل هنا ؟

— أضع نفعي تحت تصرفكم ، وسأبدل كل جهدي لتكون هذه الساعات أقلّ ثقلاً عليكم .

— لماذا اتيت الينا ؟ إن هناك أشخاصاً آخرين ، والمستشفى يفضّ بالنزلاء .

فأجاب بلهجة مبهمة :

— لقد أرسلوني الى هنا .

وأضاف على عجل :

— نجهّون ان تدخّنوا ، أليس كذلك ؟ إن معي سكاير ، بل حتى سيكارات .

وقدّم لنا سكاير انكليزية ، ولكننا رفضنا . ونظرت اليه في عينيه فهذا

منزعباً ، وقلت له :

— انك لا تجيء الينا بدافع الشفقة . والحق اني أعرفك . فلقد رأيتك مع بعض الفاشيين في باحة الثكنة يوم قبض عليّ .

وهمت باستئناف كلامي ، ولكن حدث لي فجأة شيء ما باغتني : لقد كفّ حضورُ هذا الطبيب عن إثارة اهتمامي فجأة . إن من عادتني اذا اهتمت بإنسان ألاّ أتخلّى عنه . ومع ذلك ، فقد زابلتني الرغبة في الكلام ، فهزرت كنفّي وصرفت عنه عينيّ . وبعد ذلك بقليل ، رفعت رأسي : فاذا هو يرقبني بهيئة فضول . وكان الحارسان قد جلسا على فراش من قشّ . وكان بدرو ، الهزيل الطويل ، يُدير إبهاميه ، والآخر يحرك رأسه بين الفينة والفينة ليمنع نفسه من النوم .

وقال بدرو فجأة للطبيب :

— هل تريد ضوءاً ؟

فأولاً برأسه ان « نعم » : أظنّ أنه يملك من الذكاء مقدار ما يملك الانسان البليد تقريباً ، ولكن لاشك في انه لم يكن خبيثاً . وقد خيل إليّ ، وانا أنظر الى عينيه الكبيرتين الزرقاوين الباردتين ، ان ما يعوزه انما هو خاصة قصور الخيال . وخرج بدرو ثم عاد بمصباح كاز وضعه على طرف المقعد الخشبي الطويل . وكان يرسل نوراً رديئاً ، ولكنه كان خيراً من لا شيء : فقد سبق لهم مساء البارحة ان تركونا في الظلام . ونظرت فترةً من الزمن الى دائرة النور التي كان المصباح يرسمها على السقف . وكنت مبهوراً . ثم استيقظت فجأة ، فامتحت دائرة النور واحسستني مسحوقاً تحت عبء هائل . لم تكن هي فكرة الموت ، ولا الخوف : وانما كان ذلك شيئاً غُفلاً . كانت وجنتاي تحرقاني وكان بي صداع .

ونفضت نفسي ونظرت الى رفيقيّ . كان توم قد دسّ رأسه بين يديه ، فلم أكن أرى الا رقبته السمينة البيضاء . أما جوان الصغير ، فقد كان اسوأنا وضعاً ، وكان فاغر الفم ومنخراره يرتعشان . وقد اقترب الطبيب منه ووضع

يده على كنفه كأنما يشجعّه : ولكن عينيه ظللتا باردتين . ثم رأيت يد البلجيكي تهبط خفيةً على ذراع جوان حتى الرسغ . وقد استسلم جوان للحركة في لامبالاة . وتناول البلجيكي رسغه بين أصابعه ، بهيئة شاردة ، وفي الوقت نفسه تراجع قليلاً وتدبّر أمره ليوليني ظهره . ولكنني انحنيت الى خلف فرأيتّه يسحب ساعته وينظر إليها لحظة من غير ان يترك رسغ الصغير . وبعد لحظة ترك اليد الجلامدة تسقط وذهب يستند الى الجدار ؛ وكأنما تدكّر فجأة شيئاً هاماً جداً يقتضي تسجيله على الفور ، فتناول من جيبه دفترأ صغيراً وكتب عليه بضعة أسطر . وفكرت في غضب : « يا للجان القذر ! لئن أُقبل بحسّ نبضي ، فسأرسل قبضي في وجهه الوسخ ! »

ولم يجيء ، ولكنني أحسست أنه كان ينظر إليّ ، فرفعت رأسي وبادلته نظرتّه . وقال لي بصوت لا شخصيّ :

– ألا ترى أننا نرتجف هنا من البرد ؟

كان يبدو وكأنه مقرور ؛ كان بنفسجيّ اللون ، وقد أجبته :

– انني لا أشعر بالبرد .

ولم يكف عن النظر إليّ بعين قاسية . وفهمت فجأة فرفعت يديّ الى وجهي : كنت أنفصد عرقاً . في هذا القبو ، في إبان الشتاء ، في ملتقى التيارات الموائية ، كنت أرشح عرقاً . وأمريت أصابعي في شعري للذي كان قد تلبّد بالنضح ؛ وتبيّنت في الوقت نفسه أن قميصي كان مرطباً وكان يلتصق بجلدي : كنت أسيل عرقاً منذ ساعة على الأقل من غير ان أحسّ بشيء . ولكن ذلك لم يفتّ البلجيكي الخنزير ؛ كان قد رأى القطرات تتدحرج على خديّ وكان قد فكّر : إن هذه آية حالة من الرهبة شبه المرّضية ؛ وكان قد أحسّ بأنه طبيعيّ وفخور بأن يكون كذلك لأنه كان يحسّ البرد . وارتدت ان أنهض لأذهب فأدقّ عنقه ، ولكنني ما كدت أقوم بحركة بسيطة حتى امّحى خجلي وغضبي ، وعدت أسقط على المقعد الخشبي بلا اكتراث . واكتفيت بأن فركت عنقي بمنديلي لأنني كنت الآن أحسّ العرق يقطر

من شعري على رقبتي ، وكان ذلك يزعجني . والحق اني ما لبثت ان عدلت
عن الدلك ، كان ذلك غير مجد : فان مندبلي كان قد أصبح قابلاً للعصر ،
وما زلت أرشح . كنت أرشح أيضاً في الفخذين ، وكان بنطالي الرطب يلتصق
بالمقعد الخشبي .

وتكلم جوان الصغير فجأة :

— انت طيب ؟

قال البلجيكي : — نعم .

— هل يتعذب المرء .. طويلاً ؟

قال البلجيكي بصوت أبوي :

— اوه ا متي ؟ ولكن لا .. إن الأمر ينتهي بسرعة .

كان يبدو وكأنه يُطمئنُ مريضاً قد دفع أجرته .

— ولكني .. قيل لي .. ان الأمر يقتضي غالباً دورتين من الإطلاق .

فقال البلجيكي وهو يهزُّ رأسه :

— أحياناً . فقد يتفق ألاّ تصيب الدورة الاولى اياً من الأعضاء الحوية .

— وعند ذلك يجب ان يحشوا البنادق من جديد ويصوبوا مرة اخرى ؟

ففكّر وأضاف بصوت أبجّ :

— إن ذلك يستغرق وقتاً ا

كان يُحسّ خوفاً فظيماً من ان يتألم ، ولم يكن يفكر بغير هذا : وكان
ذلك متناسب وسنّه . اما انا ، فلم اكن أفكر بهذا بعدُ ، ولم يكن الخوف
من الألم هو الذي يجعلني أنضح العرق .

وقد نهضت وسرت حتى كومة الفحم . وانتفض نوم ورماني بنظرة
حاقدة : كنت أزعجه لأن حدائي كان بصراً . وكنت أساءل عما اذا كان
وجهي في مثل وجهه امتقاعاً : ورأيت انه ما يزال يرشح . كانت السماء رائعة ،
ولم يكن أي نور ينسلّ الى هذه الزاوية المظلمة ، ولم يكن لي إلاّ ان ارفع
رأسي لألمح « الدب الأكبر » . ولكن ذلك لم يكن بعدُ كما كان في السابق :

كان بوسعي في الليلة السابقة ان ارى من محبسي في الأبرشية رقعة كبيرة من السماء ، وكانت كل ساعة من النهار تبتعث لديّ ذكرى مختلفة . ففي الصباح اذ كانت السماء ذات زرقة قاسية وخفيفة ، كنت افكر بشواطئ الاستحمام عند حافة الاطلنطيك ؛ وظهرأ كنت ارى الشمس فأتذكرّ حانة في اشبيلية كنت أشرب فيها المانزنيلا وانا آكل سمك السنمورة والزيتون ؛ اما بعد الظهر ، فقد كنت في الظلّ ، وكنت أفكر بالظلّ العميق الذي يمتدّ على نصف الحلبات ، بينما يشعشع النصف الآخر في الشمس : لقد كان شافاً حقاً ان ارى الأرض كلّها على هذا النحو تنعكس في السماء . اما الآن فقد كان بوسعي ان انظر في الهواء ما شئت ، فان السماء لم تكن تبتعث لديّ بعدُ شيئاً . وكنت اوثر هذا . وقد عدت أجاس قرب نوم ؛ وانقضت فترة طويلة .

وأخذت نوم يتكلم ، بصوت منخفض . كان لا بدّ له من ان يتكلم دائماً ، وإلاّ فانه لا يتعرف جيداً الى نفسه في افكاره . وأعتقد انه انما كان يتوجّه إليّ ، ولكنه لم يكن ينظرني . ولا شك في انه كان يخشى ان يراني كما كنت : ممتعاً وفاضحاً بالعرق : لقد كنتا متشابهين وأسوأ من مرأتين احدنا بالنسبة للآخر . كان ينظر الى البلجيكي ، الحيّ . وكان يقول :

– هل تفهم انت ؟ اما انا ، فلا أفهم .

وأخذت أتكلم بصوت منخفض كذلك . وكنت أنظر الى البلجيكي .

– ماذا ؟ ماذا هناك ؟

– سيحدث لنا شيء لا أستطيع ان أفهمه .

وكان ثمة رائحة غريبة حول نوم . وخيّل إليّ اني كنت أشدّ إحساساً

بالروائح مما انا في العادة . وقهقهت :

– ستفهم عمّا قليل .

فقال بلهجة معاندة :

– ليس ذلك بواضح . اني أودّ كثيراً ان أملك الشجاعة ، ولكن ينبغي

على الأقل ان أعرف ... اسمع . سوف يقودوننا الى الساحة . حسناً . وسيصطف
الجنود امامنا . كم سيكون عددهم ؟
- لا أدري . خمسة او ثمانية . لا اكثر .

- حسناً . سيكونون ثمانية . وسيصبحون بهم : « صوبوا » وسأرى
البنادق الثماني مصوبة نحوي . وأحسب اني اودّ لو أدخل في الجدار ، وسأدفع
الجدار بظهري بكل قواي ، ولكن الجدار سيصمد ، كما يحدث في جميع
الكوايس . هذا كله أستطيع أن أتصوره . آه ! كم أستطيع أن أتصوره ،
لو كنت تعلم !
فقلت له :

- كفى ! لاني انا أيضاً أتصوره .
- لا بدّ ان يحدث ذلك المأ فظيماً .
وأضاف في شراسة :

- انت تعلم أنهم يصوبون على العينين والقم بغاية التشويه ، لقد بدأت
منذ الآن أحسّ الجروح ؛ منذ ساعة تتابني الآلام في رأسي وعنقي ليست
هي آلاماً حقيقية ؛ بل هي أسوأ : إنها الآلام التي سأحسّها غداً صباحاً .
ولكن بعد ذلك ؟

وكنت ادرك جيداً ما كان يقصد لايه ، ولكن لم اكن اريد ان يبدو عليّ
ذلك : اما الآلام ، فقد كنت أنا ايضاً أحملها في جسمي ، كمجموعة من
الندوب الصغيرة . لم اكن أستطيع التخلص من الإحساس بها ، ولكنني
كنت مثله ، ولم اكن أعلّق عليها أهمية .
وقلت بقسوة :

- وبعد ذلك سوف تحشو فمك بالهندباء البريّة .

وأخذ يتحدث لنفسه وحدها : لم يكن يغادر البلجيكي بعينيه . ولم يكن
يبدو علي هذا أنه يسمعه . كنت أعرف ما الذي جاء يفعله ؛ لم يكن يهتم
ما كنا نفكر به ؛ كان قد جاء ينظر الى أجسامنا ، أجسام كانت تحتضر وهي حيّة .

كان توم يقول :

— كما يحدث في الكوابيس . إن المرء يريد أن يفكر بشيء ما ، ويُحسّ طوال الوقت أنه سيُدرك ويفهم ، ثم ينساب ذلك منه ويفوته . وأقول لنفسي : لن يكون بعد ذلك ثمة شيء . ولكنني لا أفهم ما يعني هذا . هناك لحظات أدرك فيها ذلك تقريباً .. ثم يسقط هذا ، وأعود أفكر بالآلام والرصاصات والانفجارات . أقسم اني ماديّ ؛ اني لم أصبح مجنوناً . ولكن هناك شيئاً معقداً . اني ارى جنّتي : ليس ذلك صعباً ، ولكنني « انا » الذي اراها « بعيني » . ينبغي أن أتمكن من التفكير ... التفكير بأنني لن ارى بعد شيئاً ، ولن أسمع بعد شيئاً ، وان العالم سيستمرّ بالنسبة للآخرين . اننا لم نُخلق لنفكر بهذا ، يا بابلو . بوسعك ان تصدّقني : لقد حدث لي مرة ان سهرت طوال الليل وانا انتظر شيئاً . ولكنّ هذا الأمر هنا مختلف : إنه يقبض علينا من الخلف ، يا بابلو ، ولن يتاح لنا الوقت للاستعداد له .

قلت : — أغلق فمك . أتريد ان انادي معرفاً ؟

فلم يجب . وقد سبق لي ان لاحظت انه كان لديه ميلٌ للظهور بمظهر النبيّ ولمناداتي ببابلو بصوت أبيض . ولم أكن أحبّ هذا كثيراً ، ولكن يبدو ان جميع الايرلنديين هم كذلك . وكان لديّ شعور مبهم بأن رائحة بولٍ تبعث منه . والحق اني لم أكنّ كثيراً من الود لتوم ، ولم اكن أعرف سبب ذلك ، وكان المفروض ان أحفظ له قدرأ اكبر من الودّ ، بحجة اننا كنا سنموت معاً . إن هناك أشخاصاً كان الأمر يكون معهم مختلفاً . مع رامون غري مثلاً . اما بين توم وجوان ، فقد كنت أحسّني وحيداً . والحق اني كنت أفضل ذلك : فلو كنت مع رامون ، فلربّما تعطّفت ، ولكنني كنت قاسياً قسوة فظيعة في تلك اللحظة ، وكنت أودّ أن أبقى قاسياً .

وظلّ يمضغ الكلمات ، في شيء من الشرود . والمؤكد انه كان يتكلم حتى يمنع نفسه من التفكير . وكانت رائحة البول تبعث منه فتغمم الأنف ، كما هو شأن المصابين بالبروستات .. وقد كنت بالطبع من رأيه ، وكان بإمكانني

ان اقول كل ما كان يقوله: فليس «طبيعياً» ان يموت المرء. ومنذ ان ادركت اني مقبلٌ على الموت، كفت كل شيء عن ان يبدو لي طبيعياً، لا بقية الفحم هذه، ولا ذلك المقعد الخشبي ولا وجه بلرو القذر. غير انه كان يسوعني ان أفكر تفكير توم نفسه. وكنت أعلم جيداً اننا، طوال الليل، سنواصل تفكيرنا نفسه في وقت واحد، بفرق خمس دقائق، او سترشح عرقاً، او سنرتعش في اللحظة نفسها. وقد حدجته بطرف عيني، وللمرة الاولى بدا لي غريباً: كان يحمل موته على وجهه. وكنت مجروحاً في كبريائي: فطوال اربع وعشرين ساعة، كنت قد عشت الى جانب توم، واستمعت اليه، وتحدثت معه، وكنت أعرف أنه لم يكن بيننا شيء مشترك. وها نحن الآن متشابهان كتوأمين، لأننا بكل بساطة سنموت معاً.

وتناول توم يدي من غير أن ينظر إليّ:

— بابلو.. اني أتساءل... أتساءل عما اذا كنت حقاً ستندم.

وأفلتت يدي، وقلت له:

— انظر ما بين قدميك، ايها القذر.

كان بين قدميه مستنقع، وكانت قطرات تسقط من بنطاله. وقد قال

في شدة:

— ما هذا؟

فقات له: — انك تبول في سروالك.

فقال غاضباً:

— هذا غير صحيح. اني لا أبول. اني لا أحس شيئاً.

وكان البلجيكي قد اقترب، فسأل في لهجة مشاركة زائفة:

— هل تُحسّ بألم ما؟

فلم يجب توم. ونظر البلجيكي إلى المستنقع من غير ان يقول شيئاً.

وقال توم بصوت متوحش:

— لا ادري ما هذا، ولكنني لست خائفاً. أقسم لكم اني لست خائفاً.

فلم يجب البلجيكي . ونهض توم وانجه الى ركن يبول فيه . ولما عاد وهو يزور فتحة بنطاله ، جلس ثانية وانقطع عن الكلام . وكان البلجيكي يسجل ملاحظات .

وكنا ننظر اليه نحن الثلاثة لأنه كان حياً . كانت له حركات حيّ ، وهموم حيّ ، كان يرتجف في هذا القبو ، كما لا بدّ للاحياء ان يرتجفوا ؛ وكان له جسم مطيع جيّد التغذية . اما نحن ، فلم نكن نُحسّ بعدُ أجسامنا ، لم نكن نُحسّها بعدُ على النحو نفسه ، بأية حال . وكان بودي ان أجسّ بنطالي ، فيما بين فخذيّ ، ولكنني لم اكن أجروّ ؛ وكنت انظر الى البلجيكي ، مقوساً على ساقيه ، سيّد عضلاته - والذي كان يستطيع ان يفكّر في الغد . لقد كنّا هنا ثلاثة أشباح محرومة من الدم ؛ كنا ننظر اليه وكنا نمتصّ حياته كالحفافيش .

وانتهى أخيراً الى الدنوّ من جوان . أتراه كان يريد ان يحسّ رقبته بدافع مهنيّ ما ، ام انه كان يستجيب لشعور إحسان شقوق ؟ لأن فعل ذلك بدافع الاحسان فتلك هي المرة الوحيدة الفريدة طوال الليل . لقد لامس رأس جوان الصغير وعنقه . واستسلم الفتيّ لحركته ، من غير ان يغادره بعينيه ، ثم تناول يده فجأة ونظر اليها نظرة غريبة . كان يُمسك بيد البلجيكي بين يديه ، ولم يكن فيهما شيء مستحبّ ، تانك الكماشتان الرماديتان اللتان كانتا تشدّان هذه اليد السمينة المحمّرة . وكنت أتوقع جيداً ما سوف يحدث ، ولا بدّ ان توم كان يتوقعه ايضاً : ولكن البلجيكي لم يكن يرى فيه الا ناراً ، فكان يتسم بسمّة أبوية . وبعد لحظة ، رفع الفتيّ اليد الضخمة الحمراء الى فمه وأراد ان يعضّها . فتخلّص البلجيكي بجوية وتراجع نحو الجدار متعثراً . وقد نظر الينا لحظةً في شيء من الذعر ، ولا بدّ انه كان يدرك فجأة أننا لم نكن إلاّ رجالاً مثله . وأخذت أضحك ، فانفض أحد الحارسين . اما الآخر ، فكان قد أغفى ، وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، بيضاوين .

كنت أحسّي متعباً مهتاجاً في الوقت نفسه . ولم اكن اريد ان افكر بعدُ بما سوف يحدث عند الفجر ، بالموت . إن ذلك لم يكن لييجدي شيئاً فأنا لم اكن التقّي إلاّ كلاماً او فراغاً . ولكنني كنت ما ان احاول التفكير بشيء آخر حتى ارى فوهات بنديقيات مصوّبة نحوي . وربما عشت عشرين مرة متتالية مشهد إعدامي ؛ بل لقد حسبت مرة ان الأمر يتمّ فعلاً : لا بدّ اني كنت قد غفوت دقيقة . كانوا يجرونني نحو الجدار وانا أتخبط ، وكنت اطلب منهم العفو . وقد استيقظت مستفضاً ونظرت الى البلجيكي : كنت خائفاً ان اكون قد صرخت في أثناء نومي . ولكنه كان يملّس شاربه ؛ إنه إذن لم يلاحظ شيئاً . وأظنّ اني لو شئت لكان بوسعي ان أنام فترة : لقد كنت ساهراً منذ ثمان وأربعين ساعة ، وكنت منهوك القوى . غير اني لم اكن راغباً في فقد ساعتين من الحياة يكونون قد جاؤوا في أثناءهما فأيقظوني عند الفجر وتبعتهم مخدراً بالنوم من غير وعي ؛ لم اكن اريد هذا ، لم اكن اريد ان أموت كحيوان ، كنت اريد ان أفهم . ثم اني كنت أخشى ان تحدث لي كوابيس . وقد نهضت وذرعت القبو جيئة وذهاباً ، وأخذت افكر بحياتي السابقة ، رغبةً مني في تغيير افكاري . وقد عاودني حشد خليط من الذكريات . وكان فيها الطيب والريء - او هكذا كنت أصفها « من قبل » . كان فيها وجوه وحكايات . وقد استعدت صورة وجه مصارع ثيران اخترق الثور بطنه بقرنيه في حفلة أقيمت بفلانسيا ، ووجه أحد أخوالي ، ووجه رامون غري . وتذكرت حكايات : كيف عشت في بطالة طوال ثلاثة أشهر من عام ١٩٢٦ ، وكيف أوشكت ان أموت جوعاً . وتذكرت ليلة كنت قد قضيتها على مقعد خشبي . طويل في غرناطة : كان قد مرّ ثلاثة ايام لم أذق فيها طعاماً ، وكنت أتميّز غضباً ، ولم اكن اريد ان أموت . إن هذا يجعلني أبتسم . بأيّ نهَم كنت أعدو خلف السعادة ، وخلف النساء ، وخلف الحرية ! ما جدوى ذلك ؟ لقد اردت ان أحرّر اسبانيا ، وكنت معجباً بيبي اي مرغال ، وكنت قد انتسبت الى الحركة الفوضوية ، وكنت

قد خطبت في اجتماعات عامة : كنت أحمل كل شيء على محمل الجد ،
كما لو اني كنت مخملاً .

في تلك اللحظة ، أحسست بأنني كنت أمسك حياتي كلها امامي وفكرت :
« إنها لكذبة قدرة . » انها لم تكن تساوي شيئاً ما دامت قد انتهت . وتساءلت
كيف استطعت من قبل ان أتزده وأمازح الفتيات : انني ما كنت لأحرك
بنصري لو تصوّرت تصوّراً فحسب انني سأموت على هذا النحو . كانت
حياتي امامي موصدة ، مغلقة كالكيس ، ومع ذلك فان كل ما كان في داخلها
كان غير ناجز . وحاولت لحظةً ان أحكم عليها . كان بودي لو أقول
لنفسي : انها حياة جميلة . ولكن لم يكن ممكناً الحكم عليها ، فانها كانت
بداية : كنت قد انفتحت وقتي وانا أخطط للخلود ، فلم أفهم شيئاً قط .
ولم أكن متحسراً على شيء : كان ثمة كثير من الأشياء التي كان بإمكانني أن
أتحسّر عليها ، من مثل نكهة المانزنيلا او الحمامات التي كنت آخذها في
خليج صغير في قادش ، ولكن الموت كان قد انتزع سحر كل شيء .

وفجأة ، خطرت للبلجيكي فكرة عظيمة ، فقال لنا :

— إن بوسمي يا أصدقائي أن أنطوع — شريطة ان توافق الادارة العسكرية —

بحمل كلمة منكم او ذكري الى الأشخاص الذين يحبونكم ...

فلمدم توم :

— ليس لي أحد ...

ولم أجب بشيء . وانتظر توم لحظة ثم تأملني بفضول :

— الا تبعث بشيء الى كونشا ؟

— لا .

وكنت أحتقر هذا التواطؤ المتعاطف : كانت تلك غلطتي ، فلقد تحدثت
عن كونشا في الليلة السابقة ؛ وكان عليّ ان أمتنع عن ذلك . كنت معها منذ
عام ، وقد كنت على استعداد عشية الأمس لأن أقطع ذراعي بضربة فأس
من أجل ان أراها خمس دقائق . وكان هذا ما دفعني الى التحدث عنها ،

كان ذلك أقوى مي . اما الآن ، فلم يكن لديّ بعد أية رغبة في ان أراها ثانية ، ولم يكن لديّ بعد ما أقوله لها . بل اني لا رغبة عندي في ان أضمتها بين ذراعيّ : كنت أشمّز من جسمي ، لأنه كان قد أصبح رِ مادياً ، وكان يرشح عرقاً – ولم اكن متأكداً من انني لن أشمّز من جسمها ايضاً . سببكي كوننا حين تعلم نبأ موتي ؛ وستفقد طوال أشهر طعم الحياة . غير اني كنت مع ذلك انا الذي سيموت . وفكرت بعينها الرقيقتين . حين كانت تنظر إليّ ، كان شيء ما ينتقل منها إليّ . ولكني فكرت بان الأمر قد انتهى : فلو انها كانت تنظر إليّ « الآن » لبقني نظرها في عينيها ، ولما انتقل إليّ . كنت وحيداً .

وكان نوم وحيداً كذلك ، ولكن لا بالطريقة نفسها . كان قد ركب المقعد الخشبي في جلسته وجعل ينظر اليه مبتسماً وعليه هيئة الدهشة . وقد مدّ يده ولمس الخشب في حذر ، كما لو انه كان يخشى ان يكسر شيئاً ما ، ثم سحب يده بحوية وارتعش . ولو كنت انا نفسي نوم ، لما تسلّيت بلامسة الخشب ؛ صحيح ان ذلك كان تمثيلاً من تمثيل الايرلنديين ، ولكني كنت أجد كذلك ان الاشياء كانت ذات هيئة غريبة : كانت اكثر امحاءً ، وأقلّ كثافة من العادة . كان حسبي أن انظر الى المقعد ، والى المصباح ، والى كومة الفحم لأشعر اني مقدمٌ على الموت . وبالطبع لم أكن أستطيع ان اتصور صوتي بوضوح ، ولكني كنت أراه في كل مكان ، على الأشياء ، وفي الطريقة التي بها تقهقرت الأشياء ولبثت على مسافة ما ، بصورة خفية ، كأشخاص يتكلمون بصوت منخفض أمام سرير انسان محتضر . إن الذي لمسه نوم على المقعد ، إنما كان « موته » .

لو جاءوا يبلغونني ، وانا في تلك الحالة ، انه كان بوسعي ان أعود بهدوء الى بيتي ، وانهم يتركون لي حياتي سالمة ، لخلفني ذلك في برود : إن بضع ساعات او بضع سنوات من الانتظار هي سواء ، حين يفقد المرء وهم انه أبديّ . اني لم أكن متشبهاً بعدُ بشيء ، على نحو ما ، كنت هادئاً . ولكنه

كان هدوءاً فظيماً - بسبب جسمي : جسمي الذي كنت أرى بعينه ، وكنت أسمع بأذنيه ، ولكنه لم يكن بعدُ إيتاي ؛ كان يعرق ويرتجف وحده حتى انني كنت أنكره . كنت مضطراً الى ان ألسه وان انظر إليه لأعرف كيف أصبح ، كما لو انه كان جسم إنسان آخر . كنت أحياناً أحسُه بعد ، كنت أحسُ انزلاقات ، وضروباً من التدرجات ، كما يحدث اذ يكون المرء في طائرة تهبط عمودياً ، او انني كنت أحسُ قلبي يخفق . ولكن ذلك لم يكن ليطمئني ، إن كل ما كان يصلر عن جسمي كان ذا هيئة مشبوهة قلرة . كان معظم الوقت صامتاً ، هادئاً ، ولم اكن أحسُ بعدُ شيئاً ، الا نوعاً من الثقل ، حضوراً قنراً بازائي ؛ كان لدي شعورٌ بأنني مشدودٌ الى دودة هائلة . وقد لمست ذات مرة بنطالي ، فأحسست بأنه رطب ؛ ولم اعرف ان كان مبتلاً من العرق ام من البول ، ولكنني ذهبت ابول على كومة الفحم ، على سبيل الاحتياط .

وسحب البليجيكي ساعته ونظر اليها وقال :

- انها الساعة الثالثة والنصف .

التذر الجبان ! إلا بدّ انه تقصد ذلك تقصداً . وقد قفز نوم في الهواء : ذلك اننا لم نكن قد شعرنا بعد بأن الزمن يمر ؛ كان الليل يحيط بنا كتكلة شوهاء مظلمة ، بل أنا لم اكن اذكر انه كان قد بدأ .

وأخذ جوان الصغير يصرخ . كان يلوي يديه ويقول :

- لا اريد ان اموت . لا اريد ان أموت .

وركض عبر القبوكلته ، وهو يرفع ذراعيه في الهواء ثم ارتدى على احدى فرشات القش وجعل يبكي . وكان نوم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تكن لديه بعدُ حتى الرغبة في تعزيته . والواقع ان الوضع لم يكن يقتضي منه هذا الجهد . كان الفتى يحدث من الضجة اكثر مما كنا نحدث ، ولكنه كان مصاباً أقلّ منا : كان يشبه مريضاً يدافع مرضه بالحمى . وحين لا يكون بعدُ من حمى ، فإن الأمر أخطر بكثير .

كان يبكي : وكنت ارى جيداً انه كان مشفقاً على نفسه ؛ لأنه لم يكن يفكر بالموت . وأخذتني الرغبة ، مدة لحظة ، لحظة واحدة ، ان أبكي انا أيضاً ، أن أبكي شفقة عليّ . ولكن العكس هو الذي حدث : ألقيت نظرة على الصغير ، فرأيت كفيه الهزليتين الباكيتين وأحسستني للإنسانياً ؛ انني لم اكن أستطيع ان أشفق لا على الآخرين ولا على نفسي . وقلت لِنفسي : « اريد ان أموت نظيفاً . »

كان توم قد نهض فوقف تحت الفتحة المستديرة وجعل يترقب النهار . اما أنا ، فقد كنت مصرّاً ، كنت أريد ان أموت نظيفاً ، ولم اكن افكر بغير هذا . ولكنني كنت منذ ان قال لنا الطبيب الساعة أحسنّ الزمن يجري من تحت ، يسيل نقطة نقطة .

وكانت السماء ما تزال مظلمة حين سمعت صوت توم :

- أنسمعهم ؟

- نعم .

كان ثمة أشخاص يمشون في الباحة .

- ماذا أتوا يفعلون ؟ إنهم لا يستطيعون ان يطلقوا في الظلام .

وبعد لحظة لم نسمع شيئاً بعد . وقلت لتوم :

- هوذا النهار .

ونهض بدرو متثائباً وأقبل يطفىء المصباح ، وقال لرفيقه :

- ايّ برد هذا !

وكان للقبو قد غدا رمادياً كلّهُ . وسمعنا طلقات نارية في البعيد . فقلت

لتوم :

- لقد بدأوا . ولا بدّ أنهم يفعلون ذلك في الساحة الخلفية .

وسأل توم الطبيب ان يعطيه سيكارة . اما انا فلم اكن اريد سيكارة ولا

مشروباً . ومنذ تلك اللحظة لم يكفّوا عن الإطلاق . وقال توم :

- هل انت ملوك ؟

وكان يريد ان يضيف شيئاً ، ولكنه صمت ، وكان ينظر الى الباب . وقد
فُتِح الباب ودخل ملازم بصحبة اربعة جنود . وترك توم سيكارته تسقط .

– ستينوك ؟

فلم يجب توم . وكان بلرو هو الذي اوماً اليه .

– جوان ميربال ؟

– إنه ذاك الجالس على القش .

قال الملازم : – إنهض .

فلم يُبدِ جوان حراكاً ، فأخذه جنديان من إبطيه ووقفاه على قدميه .
ولكنهما ما ان تركاه حتى سقط مرة اخرى . وتردد الجنديان ، فقال الملازم :
– ليس هو اول من عانى هذا ، فليس لكما الا ان تحملاه ، وستدبر
الأمر هناك .

والتفت الى توم فقال له :

– هيا ، تعال .

فخرج توم بين جنديين ، وكان جنديان آخران يتبعانهم وهم يحملون
الصغير من إبطيه وعرقوبيه . لم يكن مغمى عليه ، فقد كانت عيناه مفتوحتين
على سعتهما وكانت الدموع تسيل على خديّه . وحين اردت ان أخرج ،
أوقفني الملازم :

– أنت اييانا ؟

– نعم .

– انتظر هنا : سوف يأتون لأخذك عما قليل .

وخرجوا . وخرج البلجيكي والسجّانان كذلك ، وبقيت وحدي . ولم
أكن أفهم ما يجري لي ، ولكني كنت اوثر ان ينتهوا من الأمر على الفور .
وكنت أسمع الإطلاق في فترات منتظمة تقريباً ، وكنت ارتجف لكل مجموعة
من الطلقات . وكان بودي ان أصرخ وان انتزع شعري . ولكني كنت اكرّ
على أسناني وأدس يدي في جيوبي لأني كنت اريد ان أبقى نظيفاً .

وبعد انقضاء ساعة جاءوا يأخذونني فقادوني الى الطابق الأول ، الى غرفة صغيرة كانت تنبعث منها رائحة السيكار ، وبدت حرارتها لي خانقة . كان هناك ضابطان يدخنان وهما جالسان على أريكتين وعلى ركبتيهما اوراق .

– هل تُدعى ابياتا ؟

– نعم .

– اين رامون غري ؟

– لا أدري .

وكان الذي يسألني قصيراً وسميناً . وكانت له خلف نظارته عينان قاسيتان .

وقد قال لي :

– اقرب .

فاقربت . فنهض وأخذني من ذراعي وهو ينظر إلي نظرة مرعبة . وفي الوقت نفسه كان يقرص عضلاتي بكل قواه . ولم يكن قصده ان يوجعني ، وإنما كانت تلك اللعبة الكبرى : كان يريد ان يستولي عليّ . وكان يرى من الضروري كذلك ان يرسل انفاسه المتعفنة في وجهي . وقد بقينا هكذا لحظات ، وكان ذلك يوحى لي بالاحرى رغبةً في الضحك . إن ارهاب انسان موشك على الموت يقتضي اكثر من هذا بكثير : فذلك لم يكن ليؤثر . وقد دفعني بعنف ثم جلس وقال :

– إن حياتك مقابل حياته . فسوف تُنقذ حياتك اذا قلت لنا اين هو .

هذان الشخصان المبهرجان بسوطيهما وخذائيهما الطويلين كانا رغم كل شيء رجلين سيموتان . بعد موتي بتليل ، لا اكثر من ذلك . وقد كانا منشغلين بالبحث عن أسماء في اوراقهما ، وكانا يركضان خلف رجال آخرين ليسجنوهم او يعدموهم ؛ وكانت لهما آراء عن مستقبل اسبانيا وعن موضوعات أخرى . وكانت نشاطاتهما الصغيرة تبدو لي مزعجة ومضحكة لغلاظتها : كنت لا أستطيع بعد ان أضع نفسي مكانهما ، فقد كان يخيل إليّ انهما كانا مجنونين .

كان القصير السمين ما يزال ينظر إليّ وهو يصنع حذاءه الطويل بسوطة .
وكانت جميع حركاته مصمّمةً على ان تكسبه هيئة حيوان حيّ ومفترس .

— وإذن ؟ هل هذا مفهوم ؟

فأجبت :

— لا أعرف اين هو غري . كنت أظنّ انه كان في مدريد .

ورفع الضابط الآخر يده الصفراء في تناقل . وهذا التناقل كان ايضاً
مصمّماً . كنت ارى وادرك جميع لُعبهما ، وكنت مبهوراً ان يكون ثمة رجال
يتسلّون بهذا . وقال في هدوء :

— إن امامك ربع ساعة للتفكير . خذوه الى غرفة الغسيل ، ثم أعيدوه
بعد ربع ساعة . فاذا أصرّ على الرفض ، فسوف يُعدم فوراً .

كانا يعرفان ما يفعلانه : فقد كنت قضيت الليل في الانتظار ، وبعد ذلك
جعلاني انتظر كذلك ساعةً في القبو ، بينما كان الرصاص يُطلق على توم
وجوان ، وها هما الآن يجلساني في غرفة الغسيل ، ولا بدّ أنهما قد
أعدّاً فعلتهما منذ أمس . كانا يقولان لنضيفهما إن الأعصاب تتلف مع
مرور الوقت وكانا يأملان ان يتغلّب عليّ بهذه الطريقة .

ولكنهما كانا مخطئين . وقد جلست في غرفة الغسيل على كرسيّ صغير
لأنني كنت أحسني ضعيفاً جداً ، وأخذت أفكّر . ولكن ليس بالعرض الذي
قدّمناه . كنت بالطبع أعرف اين كان غري ، كان مختبئاً عند اقاربه ، على بعد
اربعة كيلومترات من المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مخبأه ،
إلاّ اذا عدّ باني (ولكن لم يكن يبدو عليهما انهما يفكران بذلك) . كان ذلك
كلّه مبتوراً فيه نهائياً ، ولم يكن يهمني قط . على اني كنت أودّ لو أفهم أسباب
تصرفي . كنت اوثر ان اموت على ان أسلّم غري . لماذا ؟ كنت قد كفت
عن حبّ رامون غري . كانت صداقتي له قد ماتت قبل الفجر بقليل ، في
الوقت نفسه الذي مات فيه حبّي لكونشا ، وفي الوقت نفسه الذي مات فيه
رغبتني في الحياة . لا شك في اني كنت ما ازال أحترمه ، فقد كان رجلاً صلباً .

ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذي كنت من أجله أقبل أن اموت بدلاً منه ،
فانه لم يكن لحياته من القيمة بعدد أكثر مما كان لحياتي ؛ لم يكن لأية حياة قيمة .
سوف يُسند رجلٌ الى جدار ، وسيُطلق الرصاص عليه حتى يموت : أكان
هذا الرجل انا ام كان غري ام كان آخر ، فالأمر سواء . صحيح اني كنت
أعرف انه كان أنفع مني لقضية اسبانيا ، ولكني كنت لا اكترث باسبانيا
وبالنظام الفوضوي : لم يكن ثمة أهمية لشيء بعد . ومع ذلك ، فقد كنت
هنا ، وكان بإمكانني ان أنقذ جلدي بتسليم غري ، وكنت ارفض
ذلك . كنت أجد هذا اقرب الى ان يكون هزلياً : فقد كان ذلك من قبيل
العناد . وفكرت :

– هل ينبغي للمرء ان يكون عنيداً ؟

وغمرني شعورٌ غريب من الجدل .

واقبلا يأخذاني ويقنأداني الى الضابطين . وانطلق جرد نحت اقدامنا
ففسلت برويتي . والنفت نحو أحد الكتائبين وقلت له :

– هل رأيت الجرذ ؟

فلم يجب . كان مقطّباً يأخذ نفسه بمأخذ الجذ . اما انا ، فكانت بي رغبة
في الضحك ، ولكني كنت أتملك نفسي لأنني كنت أخشى ، اذا بدأت ، ألا
أتمكن بعدد من التوقف . وكان للكتائبيّ شاربان ، وقد قلت له ايضاً :

– يجب ان تقصّ شاريك ، ايها الثقيل .

كنت أجد غريباً ان يترك لشعره ، في حياته ، ان يكتسح وجهه . وقد
ركلني بقدمه من غير اقتناع كبير ، فصمت .

وقال الضابط السمين :

– وإذن ، هل فكّرت ؟

كنت أنظر اليهما في فضول ، كأنهما حشرتان من نوع نادر جداً . وقلت

لهما :

– اني أعرف اين هو . انه مختبئ في المقبرة . في قبو صغير او في كوخ

والخفّارين .

وكانت تلك أكذوبة . كنت اريد ان أراهما ينهضان فيربطان حزاميهما يعطيان اوامر بلهجة اهتمام .

وقد قفزوا على قدميهما ، وقال القصير السمين :

— هيا بنا . اذهب يا مول فاطلب خمسة عشر رجلاً من الملازم لوبيز .
واما انت (والتفت إليّ) فليس لديّ الا كلمة واحدة ، اذا قلت الحقيقة .
اما اذا سخرت منا ، فستدفع الثمن غالباً .

وانطلقا في صخب وأخذت أنتظر في سكون تحت حراسة الكتائبين .
وكنت ابتسم بين الفينة والفينة لأنني كنت أتمثل الهيئة التي سنكسو وجهيهما :
كنت أحسّتي غمبلاً وخبيثاً . وتصوّرتهم يرفعون احجار المقبرة ويفتحون
ابواب الاقبية واحداً واحداً . كنت أتمثل الموقف كما لو اني كنت شخصاً
آخر : هذا السجين الذي يصر على ان يظهر بمظهر الأبطال ، واولئك الكتائبون
الرصينون بشواربهم ، وهؤلاء الرجال العسكريون الذين يركضون بين القبور ،
كان ذلك مشهداً لا يمكن مقاومة ما يثيره من ضحك .

وبعد نصف ساعة ، عاد القصير السمين وحده . وفكرت بأنه قادم ليعطي
امر تنفيذ الاعدام بي . اما الآخرون ، فلا بدّ انهم باقون في المقبرة .
ونظر إليّ الضابط ، من غير ان يبدو عليه اي مظهر للارتباك ، وقال :
— خذوه مع الآخرين الى الساحة الكبيرة . إن محكمة عادية ستقرّ مصيره
بعد نهاية العمليات العسكرية .

وحسبت اني لم أفهم . فسألته :

— انني إذن لن... لن أعدم ؟

— ليس الآن على كل حال . اما فيما بعد ، فذلك لا يعني .

وظللت غير فاهم ، فقلت له :

— ولكن لماذا ؟

فهزّ كتفيه من غير ان يجيب ، واقتادني الجنود .

وكان في الساحة الكبيرة زهاء مئة سجين ، بينهم نساء وأطفال وبعض
اليوخ . وأخذت ادور حول الحديقة الوسطى الخضراء ، وانا شبه مخبول .
وقدموا لنا الطعام ظهراً في قاعة الأكل . وقد ناداني شخصان او ثلاثة لا
أني كنت أعرفهم ، ولكنني لم أجيبهم : انني لم اكن اعرف بعدُ حتى
اين كنت .

وحوالى الظهر دفعوا الى الساحة بما يقارب عشرة معتقلين آخرين . وعرفت
بينهم غارسيا الحبّاز ، فقال لي :
- ايها المحظوظ الملعون ! لم اكن أظن ان اراك ثانية على قيد الحياة .
قلت : - كانوا قد حكموا عليّ بالموت ، ثم غيروا رأيهم ، لا أدري
لماذا .

قال غارسيا : - لقد اوقفوني عند الساعة الثانية .

- لماذا ؟

لم يكن غارسيا يتعاطى السياسة . وقال :

- لا أدري . انهم يعتقدون كل من لا يفكر مثلهم .

وخفض صوته :

- لقد قبضوا على غري .

فأخذت أرتجف :

- مني ؟

- هذا الصباح . لقد كان حماراً . لقد ترك ابن عمه يوم الثلاثاء لأنهم

بلغتهم عنه كلمات . وهو لم يكن يعدم أشخاصاً كانوا مستعدين لإخفائه ،

ولكنه كان يريد ألا يكون مديناً لأحد بعد . وقد قال : « كان بودّي ان

أختبيء في بيت إيبيناتا ، ولكن ما داموا قد قبضوا عليه ، فسأذهب لأختبيء

في المقبرة . »

- في المقبرة ؟

- نعم . كانت تلك حماقة . ولقد مرّوا بالمقبرة طبعاً ، هذا الصباح ،

وكان هذا متوقماً . وعثروا عليه في كوخ الحفّارين . وقد أطلق عليهم الرصاص
فأجابوه بالمثل وأردوه قتيلاً .

— في المقبرة !

وأخذ كل شيء يدور ، ووجدتني جالساً على الأرض : كنت أضحك
بشدة ، حتى ان الدموع طفرت الى عيني .

ايروسترات

الناس ، يجب ان ينظر اليهم من فوق . كنت اطفئ النور وأجلس الى النافذة ، فلا يخطر في بالهم أنّ بالامكان مراقبتهم من عل . إنهم يُعون بالواجهة ، وحياتاً بالموخّرات ، ولكنّ جميع تأثيراتهم مصنوعةٌ لمشاهدين يبلغ طولهم متراً وسبعين . فمنذا الذي فكّر يوماً بشكل قبعة من طراز البطيخ الأصفر اذا ما نُظرت من طابقٍ سادس ؟ انهم يهملون الدفاع عن اكتافهم ورووسهم بألوان فاقعة وأقمشةٍ لماعة ، وهم لا يحسنون محاربة هذا العدو الكبير للبشري : المنظور الغاطس . كنت أطلّ وكنت آخذ في الضحك : اين تراها كانت إذن ، تلك « المحطة الواقفة » العظيمة التي كانوا يعترّون بها هذا الاعزاز كلّه : كانوا ينسحقون بالرصيف ، وكانت ساقان طويلتان نصف زاحفتين تخرجان من تحت أكتافهم .

على شرفة طابق سادس : كان عليّ ان اقصي كلّ حياتي هناك . يجب ان تُدعم ضروب التفوق المعنوي برموز مادية ، وإلاّ سقطت . وما هو ، بالفعل ، تفوّقي على الناس ؟ إنه تفوّق في المكان ، ليس غير : لقد وقفت فوق البشري الذي فيّ وأخذت أنأمّله . من أجل هذا احبّ ابراج نوتردام ، وسطيحات برج ايفل ، وكنيسة الساكريهكور ، وطابقي السادس في شارع دولامبر . إنها رموز ممتازة .

يجب على المرء احياناً ان يهبط الى الشارع . ليذهب الى المكتب مثلاً . كنت أحتق . حين يكون المرء غارقاً في خضمّ البشر ، فمن الأصعب جداً ان يعتبرهم كالنمل : انهم يُلمسون . حدث مرة ان رأيت شخصاً ميتاً في الشارع . كان قد سقط على انفه ، وحين قلبوه ، كان ينزف دماً . وقد رأيت عينيه

المفتوحتين وهيئة العكرة ، وهذا الدم كله . وكنت اقول لنفسي : « ليس هذا بذئ بال ، فهو ليس أشد تأثيراً من الدهان الطري . كل ما في الأمر أن أفقه قد طُلي بالأحمر . » ولكني أحسست بعذوبة قدرة تتابني في ساقِي وفي رقبتي ، فأغمي عليّ . وقد حملوني الى صيدلية ، ووجهوا صفعات الى كفتي ، وسقوني كحولاً . ولو كنت في وعيي لقتلتهم .

كنت أعرف انهم كانوا أعدائي ، ولكنهم هم لم يكونوا يعرفون ذلك . كانوا يتبادلون الحبّ ويتكاتفون بالمرافق ؛ ولو كنت انا معهم لساعدوني هنا وهناك ، لأنهم يظنونني شبيهاً بهم . ولكن لو اتيح لهم ان يجلسوا بأدنى جزء من الحقيقة لقتلوني . والواقع انهم فعلوا ذلك فيما بعد . فانهم حين قبضوا عليّ وعرفوا من أنا ، أخذوا يضربوني طوال ساعتين ، وفي مفوضية الشرطة كالوا لي الصفعات واللكمات ، ولووا ذراعيّ ، وانزعوا بنطالي ، ثم رموا بنظارتِي ارضاً ؛ وفيما كنت ابحث عنهما ، وانا مُقع على أربع ، كانوا يرسلون ركلاتهم في مؤخرتي . وقد تنبأت دائماً بأن الأمر سينتهي بهم الى قتلي : فانا لست قوياً ولا استطيع ان ادافع عن نفسي . وقد كان هناك من يكمن لي منذ وقت طويل : الكبار . كانوا يدفعونني في الشوارع ، ليضحكوا ، وليروا ما الذي سأفعله . ولم أكن أقول شيئاً . كنت أظاهر بأنني لم أفهم . ومع ذلك ، فقد انتصروا عليّ . كنت أخشاهم : وكان ذلك ارهاصاً . ولكنكم تدركون انه كانت لدي أسباب أكثر وجاهة تحملي على كرههم . ومن هذه الناحية ، مضى كلّ شيء بطريقة أفضل جداً منذ اليوم الذي اشتريت فيه مسدساً . إن من يحمل أحد هذه الأشياء التي يمكن ان تنفجر وتحدث ضجة يشعر بأنه قوي . وكنت آخذه يوم الأحد ، وأضعه بكل بساطة في جيب بنطالي ، ثم أذهب للتنزه - على الطرقات إجمالاً . وكنت أحسه يضغط على بنطالي كالعقرب ، وكنت أشعر به عند فخذي بارداً . ولكنه كان يدفاً رويداً رويداً لاتصاله بجسمي . كنت أسير في شيء من التصلّب وكنت أدرسُ يدي في جيبي وأجسّ الشيء . وكنت بين الحين والحين ادخل مبولة - وحتى

في هذا المكان كنت أنتبه جيداً لأن المرء يجد غالباً بعض الجيران - فأخرج مسدسي ، وأزنته ، وأنظر الى خشبته ذات المربعات السود والى زناده الأسود الذي يشبه جفتاً نصف مغلق . وكان الآخرون الذين يرون ، من الخارج ، قدمي المتباعدين وأسفل بنطالي ، يحسبون اني كنت أبول . ولكني لا أبول قط في المبال .

وخطر في بالي ذات مساء ان اطلق الرصاص على أناس ما . وكان ذلك مساء يوم سبت ، وكنت قد خرجت لاصطحب « ليا » ، وهي شقراء تذرع الرصيف امام فندق بشارع مونبارناس . وانا لم أعقد قط علاقة حميمة مع امرأة : ولو فعلت لأحسست اني مسروق . صحيح اننا نعتليهن ، ولكنهن يلتهمن اسفل البطن بأفواههن الكبيرة المشعرة ، وهن اللواتي يربحن في هذه المبادلة ، على ما سمعت . اما انا ، فلا أطلب شيئاً من أحد ، ولكني لا اريد ان اعطي شيئاً كذلك . إلا ان تكون امرأة باردة تقيّة تحتملني في اشمئزاز . وقد كنت ، في اول سبت من كل شهر ، أصعد مع ليا الى غرفة في فندق دوكين . فكانت تنزع ثيابها ، وكنت أنظر اليها من غير ان ألمسها . واحياناً كان ينطلق من تلقاء نفسه في بنطالي ، واحياناً اخرى ، كنت اجد متسعاً من الوقت للعودة الى بيتي حيث أنجز العمل . وفي ذلك المساء ، لم أجدها في مكان عملها . فانتظرت فترة ، واذلم أرها ، افترضت انها مريضة . كان الوقت مطلع كانون الثاني ، وكان الطقس بارداً جداً ، وكنت حزيناً : فأنا انسان تخيلي ، وكنت قد تمثّلت بحماسة المتعة التي كنت انوي ان أنعم بها من تلك الأمسية . وكان ثمة في شارع اوديسا سمراء سبق لي مراراً ان لاحظتها ، وهي ناضجة بعض الشيء ، ولكنها صلبة وسمينة : انني لا احتقر النساء الناضجات ، فانهن حين ينزعن ثيابهن يبدوون أشد عربياً من الاخريات . ولكنها لم تكن تعرف هواياتي ، وكنت أخشى قليلاً أن أعرض عليها ذلك بلا مقدمات . ثم انني أحذر من التعرف على نساء جديدات : فان هؤلاء النسوة قد يخفن رجل سوء وراء أحد الأبواب ، يُقبل بعد قليل فيسلبك مالك . وستكون سعيداً

جداً اذا لم يوجه لك بعض اللكمات . على اني كنت أملك ، ذلك المساء ،
جراً لا أدري مصدرها ، فقررت ان أمرّ بالبيت فأخذ مسدسي وأخوض
في المغامرة .

حين حاذيت المرأة ، بعد ربع ساعة ، كان سلاحني في جيبي ، ولم اكن
أحشى بعد شيئاً . كانت توحني الى من ينظر اليها عن كثب بأنها أقرب الى
البؤس . كانت تشبه جارتي الساكنة قبالي ، امرأة نائب الضابط ، وقد سرّني
ذلك كثيراً لأنه مضى عليّ وقت طويل وانا أستهي ان ارى هذه عارية . كانت
تلبس ثيابها والنافذة مفتوحة ، إذ يكون نائب الضابط غائباً ، وكنت غالباً
ما أبقى خلف ستار نافذتي لأباغتها . ولكنها كانت تقوم بزيتها في جوف
الغرفة .

لم يكن باقياً في فندق ستيلا الا غرفة واحدة شاغرة ، في الطابق الرابع .
أفصعدنا اليها . كانت المرأة ثقيلة بما فيه الكفاية ، وكانت تتوقف عند كل
درجة ، لتلهث قليلاً . وكنت مرتاحاً كل الراحة : إن لي جسماً جافاً ، رغم
كرشي ، وانا بحاجة الى اكثر من أربعة طوابق لكي أفقد نفسي . وتوقفت
عند سطيحة الرابع فوضعت يدها اليمنى على قلبها وهي تتنفس بقوة . وكانت
تمسك بيدها اليسرى مفتاح الغرفة ؛ وقالت وهي تحاول ان تبسم لي :
- انها عالية .

فأخذت منها المفتاح من غير ان أجيب وفتحت الباب . وكنت امسك
مسدسي بيدي اليسرى مصوباً أمامي باستقامة عبر الجيب ، ولم أتركه الا بعد
أن أدت مفتاح الضوء . كانت الغرفة خالية . وكانوا قد وضعوا على المغسلة
مربعاً من الصابون الأخضر ، للحاجة . وابتسمت : معي انا ، لا شأن للمغاسل
ولا لمربعات الصابون . وكانت المرأة ما تزال تلهث خلفي ، وكان هذا
يثيرني . والتفت ، فمدت لي شفيتها ، فدفعتها ، وقلت لها :
- إخلعي ثيابك .

كان ثمة أريكة مطرزة ، فجلست عليها باسترخاء . اني في مثل هذه

الحالات آسف على عدم التدخين . ونزعت المرأة ثوبها ثم توقفت وهي ترميني بنظرة حذرة . فقلت لها وانا أنقلب الى خلف :

— ما اسمك ؟

— رينه .

— حسناً ، عجّلي يا رينه . انني أنتظر .

— ألا تخلع ثيابك ؟

فقلت لها : هيّا ، هيّا ، لا تهمني بي .

فأسقطت سروالها الى قدميها ثم تناولته ووضعته بعناية على ثوبها ورافعة نهديها .

وسألتي : — انت إذن داعرٌ صغير ، يا حبيبي ، كسولٌ صغير؟ أتريد ان تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله ؟

وفي الوقت نفسه خطت خطوة نحوي ، فاستندت بيديها على مرفقي أريكتي . ولكني أنهضتها في خشونة ، وقلت لها :

— لا اريد هذا ، لا اريد هذا .

فنظرت إليّ في دهشة :

— ولكن ما تريد ان افعل لك ؟

— لا شيء . إمشي ، تنزّهي ، لا اريد اكثر من هذا .

فأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، بهيئة خرقاء ، ليس من شيء يزعج النساء كأن يمشين وهنّ عاريات . لأنهنّ لم يتعودن ان يضعن أعقابهن مسطحة . كانت البغيّ تقوّس ظهرها وتدلّي ذراعيها . أما انا فقد كنت مسحوراً : كنت جالساً هناك في الأريكة مطمئناً ، مرتدياً كامل ثيابي ، بل محتفظاً حتى بقفازي ، بينما كانت تلك المرأة الناضجة قد تعرّت كلياً نزولاً عند امري ، وكانت تدور حولي .

وأدارت رأسها نحوي ، وانقاذا للمظاهر ، بسمت لي بدلال :

- انك تجدني جميلة ؟ هل تمرّن عينيك ؟

- لا تهتمي بذلك .

فقلت لي بحق مفاجيء :

- ولكن قلّ لي : هل تنوي أن تجعلني أمشي هكذا وقتاً طويلاً ؟

- إجلسي .

فجلست على السرير وأخذنا نتبادل النظر في صمت . كان شعرها قد قفّ من البرد ، وكانت تُسمع تككة منبهه ، فيما وراء الجدار . وقلت لها فجأة :

- افتحي ساقيك .

فرددت ربيع لحظة ثم أطاعت ، فنظرت بين ساقها ونشفت . ثم أخذت أضحك ضحكاً شديداً حتى طفرت الدموع الى عينيّ . وقلت لها ببساطة :

- هل تدرّكين ؟

ثم عدت الى الضحك .

نظرت إليّ في ذهول ثم احمرّت بعنف وأطبقت ساقها ، وتمتمت بين اسنانها :

- جبان قدر !

ولكني مضيت في ضحكي ، فنهضت بقفزة واحدة وتناولت رافعة نهديها عن الكرسيّ ، فقلت لها :

- هيه ! اسمعي . لم تنته بعد . سأعطيك خمسين فرنكاً عما قليل ،

ولكني اريد مقابلاً لها .

فأخذت سرواها بعصبية :

- كفاني ، كفاني . هل تسمع ؟ انني لا أعرف ماذا تريد . اما اذا كنت

قد أصعدتني الى هنا لتسخر مني ...

وإذ ذاك أخرجت مسدسي وأريتها إياه . فنظرت إليّ بهيئة جدّ وتركت

سروالها يسقط من غير ان تقول شيئاً . وقلت لها :
- إمشي ، نزهي .

وتزهدت خمس دقائق اخرى . ثم أعطيتها عصاي وحملتها على ان
تفعل التمرين . وحين أحسست بأن سروالي قد تبلل ، نهضت ومددت
لها ورقة من فئة الخمسين فرنكاً ، فأخذتها . وأضفت :
- الى اللقاء . اني لم أتعبك كثيراً مقابل الأجرة .

وخرجت ، تاركاً لإياها عارية تماماً وسط الغرفة ، رافعة نهدبها بيد ،
وورقة الخمسين فرنكاً بالأخرى . ولم أكن أسفاً على دراھمي : لقد أرعبتها ،
والبغي لا تندهب بسهولة . وفكرت وانا أهبط السلم : « هذا ما أتمناه :
أن أدهشهم جميعاً » ، وكنت فرحاً كالطفل . وكنت قد أخذت الصابونة
الخضراء وعدت الى بيتي ، ففكرتها طويلاً تحت الماء الساخن حتى غدت
قشرة دقيقة بين أصابعي تشبه جبّة ملبّس بالنعناع قد مُصّت طويلاً .

ولكني استيقظت في الليل منتفضاً وأنا أتمثل وجهها ، وعينيها حين أريتها
مسدسي ، وبطنها السمين الذي كان يقفز لكل خطوة تخطوها .

قلت لنفسي : « ما كان أشدّ بلاهتي ! » وأحسست بندم مرّ : كان علي
ان أطلق الرصاص وانا في ذلك الوضع ، وان أثقب ذلك البطن كالمرغاة .
وفي تلك الليلة والليالي الثلاث التالية حلمت بستة ثقوب صغيرة حمراء متجمّعة
في دائرة حول السُرّة .

وبعد ذلك اليوم لم أخرج قط الا بصحبة مسدسي . كنت أنظر الى ظهور
الناس وأنصوّر ، من مشيتهم ، كيف سيسقطون اذا أطلقت عليهم النار .
واعتدت ان أذهب يوم الأحد فأتمركز أمام « الشاتليه » عند خروج الناس
من حفلات الموسيقى الكلاسيكية . وكنت أسمع حوالي الساعة السادسة صوت
جرس ، وكانت العاملات يأتين فيفتحن الابواب ، وتكون تلك البداية :
كان الجمهور يخرج على مهل ، وكان الناس يسرون بخطوة عاثمة ، ما تزال
عيونهم ملامى بالحلم ، وقلوبهم ملامى بالعواطف الجميلة . وإن فيهم كثيرين

ينظرون حولهم بهيئة اندهاش : لا بدّ ان الشارع يبدو لهم ازرق كل الزرقة .
واذ ذاك كانوا يتسمون بغموض : كانوا ينتقلون من عالم الى آخر . اما انا ،
فقد كنت انظرهم في الآخر . كنت قد دسست يدي اليمنى في جيبي ، وكنت
أشدّ بكل قواي قبضة سلاحني . وكنت بعد لحظة أراني وانا أطلق عليهم ،
فأدحرجهم كأنهم براميل ، وكانوا يتساقطون بعضهم فوق بعض ؛ اما الذين
يظنون منهم أحياء فكانوا يرتدون مذعورين الى المسرح وهم يحطمون زجاج
الأبواب . كانت تلك لعبةً مثيرة جداً للأعصاب : كانت يداي ترتجفان ،
في آخر المطاف ، وكنت مضطراً الى ان اذهب فأشرب قدح كونيالك عند
« دريهر » لأستردّ شجاعتي .

اما النساء ، فما كنت لأقتلهنّ ، وانما كنت لاطلق الرصاص على أجنابهنّ
او على مابضهنّ لأجعلهنّ يرقصن .
ولم اكن قد قررت شيئاً بعد . ولكنني عزمت على ان افعل كل شيء كما
لو أنّ قراري قد اتُخذ . وقد بدأت بتدبير التفاصيل الاضافية ، فذهبت
اتدرّب في ساحة بمعرض دانفير روشيرو . ولم يكن خرطوشي عظيماً ، ولكن
الناس كانوا يشكّلون مرامي عريضة ، لا سيما حين يطلق المرء عن قرب
شديده .

ثم اهتمت بعد ذلك بعلاقتي العامة ، فاخترت يوماً كان جميع زملائي
مجمعين فيه بالمكتب . صباح يوم اثنين . وقد كنت لطيفاً معهم غاية اللطف ،
بصورة مبدئية ، بالرغم من اني كنت أشمئز من مصافحتهم . كانوا ينزعون
قفازاتهم ليحيبوا ، كانت لهم طريقة داعرة بتعرية ايديهم ؛ بتخفيض قفازاتهم
ويجعلها تنزلق يهدوء عن الأصابع كاشفةً عري الراحة السمين المدعوك . اما
انا ، فقد كنت احتفظ دائماً بقفازي .

لم نكن نعمل شيئاً ذا بال صباح الاثنين . وكانت الضاربة على الآلة في
القسم التجاري قد حملت لنا الإيصالات ، فمازحها لومرسيه بلطف ، وحين
خرجت ، أخذوا يفصلون مزايا جمالها باختصاص ضجر . ثم تكلموا عن

لندبرغ ، كانوا يحبون كثيراً لندبرغ . وقد قلت لهم :
- اما انا فأحب الابطال السود .

فسأل ماسيه : - تعني الزوج ؟

- لا ، اقصد بالسود ما نقصده حين نقول « سحر أسود » . إن لندبرغ
بطلٌ ابيض . فهو لا يثير اهتمامي .
قال بوكسين بموضه :

- اذهب فانظر اذا كان اجتياز الأطلنطيك امراً يسيراً .

وشرحت لهم نظريتي في البطل الأسود ، ولخصتها لومرسيه بقوله :
- إنه فوضوي .

فقلت على مهل : - كلا . إن الفوضويين يحبون الناس على طريقتهم .
- إنه إذن الانسان المطارد .

ولكن ماسيه تدخل في تلك اللحظة ، فقال لي :

- إنني اعرفه ، نموذجك . هو يدعى ايروسترات . كان يريد ان يصبح
مشهوراً فلم يجد خيراً من ان يحرق معبد ايفيز ، احدى عجائب العالم السابع .
- وماذا كان يدعى مهندس ذلك المعبد ؟

فاعترف بقوله : - لست اذكر بعد . بل أحسب ان اسمه غير معروف .
- حقاً؟ وتذكر اسم ايروسترات ؟ انك ترى انه لم يقم بحساب رديء

الى حد بعيد .

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات ، ولكني كنت هادئاً جداً ، انهم
سيذكرونها في اللحظة المناسبة . اما انا الذي لم اكن قد سمعت حتى الآن عن
يتحدث عن ايروسترات ، فان قصته قد شجعتني . لقد مضى على موته اكثر
من ألفي عام ، وما زال عمله يلتمع ، كاللؤلؤة السوداء . وقد بدأت أعتقد
أن قدرتي سيكون قصيراً وفاجعاً . وقد أخافني ذلك اول الأمر ، ثم تعودته .
صحيح أن ذلك شديد القسوة ، اذا واجهناه من ناحية ما ، ولكنه من ناحية
اخرى يمنح اللحظة التي تمر قوة وجمالاً عظيمين . حين كنت أهبط الشارع ،

كنت أحسّ في جسمي قدرة عجيبة . كان في جبني مسدسي ، ذلك الشيء الذي ينفجر ويحدث ضجة . غير انني لم أكن أستمد منه بعد ثقتي وطمأنيتي ، وانما كنت أستمدّها مني : كنت كائناً من نوع المسدسات والمفرقات والقنابل . سوف انفجر انا ايضاً ، عند نهاية حياتي المظلمة ، وسأضيء العالم بأشعة عنيفة وقصيرة كالتماع المانيزيوم . وقد اتفق لي ، حوالي هذه الفترة ، ان حلمت لبضع ليالٍ متوالية بالحلم نفسه . كنت فوضوياً ، وكنت واقفاً في الطريق الذي يمرّ به القيصر ، وكنت أحمل آلة جهنمية . وفي الساعة المعينة ، كان الموكب يمرّ ، والقنبلة تنفجر فتطير في الهواء ، وانا والقيصر والضباط الثلاثة المزدانون بالذهب ، تحت انظار الجمهور .

وكنت أمكث الآن أسابيع طويلة من غير ان أظهر في المكتب . كنت أتزه في الشوارع ، وسط ضحايي المقبلة ، او كنت احتبس في غرفتي وارسم المخططات . وقد طُردت في مطلع اكتوبر ، فقضيت أوقات فراغي في كتابة الرسالة التالية التي نقلت منها مئة ونسختين :

« سيدي .

« انت مشهور ، ومولفانك يطبع منها ثلاثون الف نسخة . سأقول لك لماذا : ذلك انك تحب البشر . إن نزعتك الانسانية مزروعة في دمك : فأني حظ هذا ! إنك تفتّح حين تكون برفقة الناس ؛ فيكفي أن ترى أحد أشباهك حتى من غير ان تعرفه ، لتحسّ نحوه بالودّ . إن لك ميلاً نحو جسمه ، ونحو الطريقة التي صنّع بها ، ونحو ساقيه اللتين تنفرجان وتنغلقان طوع ارادته ، ونحو يديه خصوصاً : انه يروق لك ان يكون لكل يد من يديه خمسة أصابع وان يستطيع معارضة اهلهم بسائر أصابعه . انك تتلذذ حين يأخذ جارك فنجاناً من على الطاولة ، لأن هناك طريقة للأخذ هي طريقة انسانية خاصة سبق لك مراراً أن وُصفتها في مولفانك ؛ وصحيح انها اقل مرونة واكل سرعة من طريقة القرد ، ولكنها أكثر ذكاء بما لا يُقاس ، أليس كذلك ؟ وانت

تحب ايضاً لحم الانسان ، ومشيته الشبيهة بمشية الجريح الذي يُعاد تمرينه ، وهيته بأن يخترع من جديد طريقة المشي في كل خطوة ، ونظرة العظيمة التي لا تستطيع الحيوانات الشقر ان تحتملها . وإذن ، فقد كان يسيراً عليك ان تعثر على اللهجة المناسبة لتحدث الانسان عن نفسه : لهجة محتشمة ، ولكنها مولّثة . إن الناس يرمون على كتبك في نهم ، ويقرأونها وهم جالسون في اريكة مريحة ، ويفكرون في الحب الكبير الشقيّ المتحفظ الذي تحمله لهم ، وهذا يعزّيمهم عن أشياء كثيرة ، عن ان يكون بعضهم بشعين ، او قدرين جنباء ، او ان تخونهم زوجاتهم ، او ألاّ يتلقّوا زيادة الراتب في اول يناير . ويقال عن هوايتك الأخيرة في رضى : انها عملٌ طيب .

« وافترض ان الفضول يأخذك لمعرفة ما عساه يكون إنسانٌ لا يجب البشر . الحق اني إيتاه ، وقد بلغ من قلة حبيّ لهم اني قادمٌ عما قليل على قتل نصف دزينة منهم . وربما كنت تتساءل : ولماذا نصف دزينة فقط ؟ لأن مسدسي لا يحوي إلا ست رصاصات . هذه فظاعة ، أليس كذلك ؟ ثم هي بالاضافة الى ذلك عملٌ غير سياسي تماماً ؟ ولكني اقول لك اني لا أستطيع ان أحبهم . اني أفهم جيداً ما تشعر به . ولكنّ ما يجذبك فيهم ينفرتي . لقد رأيت مثلك اناساً يعلكون في إيقاع محتفظين بعيونهم سديدة ، او مقلّبين باليد اليسرى صفحات مجلة اقتصادية . ايكون الذنب ذنبي اذا كنت اوثر ان أحضر طعام الفقمة ؟ إن الانسان لا يستطيع ان يأتي حركة في وجهه الا وتدخل في لعبة الفراسة . فهو حين يمضغ محتفظاً بفمه مغلقاً ، بحيث تصعد زاويتا فمه وتهبط ، يبدو وكأنه ينتقل بلا هوادة من الصفاء الى المفاجأة الباكية . أنا أعلم انك تحب ذلك ، وتسميه يقظة « الروح » . اما أنا ، فان هذا يثير اشمزازي : لا ادري لماذا ، ولكني هكذا خلقت .

« لو لم يكن بيننا الا فرق في الذوق والحسّ ، لما كنت أزعجك . ولكن كل شيء يجري كما لو انك كنت تملك النعمة وانا لا أملكها . انا

حرّ في ان احب او لا احبّ سرطان البحر مطبوخاً على الطريقة الاميركية ،
ولكني اذا لم احبّ البشر ، فاني بائس ، ولا أستطيع ان أجد مكاناً تحت
الشمس . لقد احتكروا معنى الحياة . وآمل ان تفهم ما أعنيه . لقد انقضى
عليّ ثلاثة وثلاثون عاماً وانا اصطدم بأبواب موصدة كُتِبَ فوقها : « لا
يدخل هنا من لم يكن إنسانياً . » وقد وجب عليّ ان أتخلى عن كل ما بدأت به ؛
كان ينبغي ان أختار : فاما انها كانت محاولة لامعقولة ومخفّقة ، واما انها
يجب تنتهي عاجلاً او آجلاً لمصلحتهم . إن الافكار التي لم أكن ارصدها
لهم بصراحة ، لم اكن انجح في فصلها عن نفسي ، في تكوينها : فكانت
تبقى فيّ كأنها حركات عضوية خفيفة . وحتى الآلات التي كنت استعملها ،
كنت أحسّ أنّها لهم ؛ الكلمات مثلاً : كنت اريد كلمات لي ، ولكن التي
تحت تصرفي قد ساحت في ضمائر لا أعرف لها عدداً ؛ انها تنتظم في رأسي
من تلقاء نفسها بفضل العادات التي اكتسبتها لدى الآخرن ، وانا اذ استعملها
في الكتابة اليك ، لا أفعل ذلك بلا اشمزاز . غير اني أفعل هذا للمرة الأخيرة :
واقول لك : يجب على المرء ان يحب البشر ، وإلاّ لم يسمحوا له بأن يتحرك
في أي عمل . حسناً ، اما انا ، فلا اريد ان أتحرك في عمل ، بل سأخذ الساعة
مسدسي فأهبط الى الشارع وسأرى اذا كان من الممكن النجاح في شيء
يُعمل ضدهم . فوداعاً يا سيدي ، ربما كنت انت الذي سألقاه . إنك
لن تعرف اذذاك بأية متعة سأطير دماغك . وإلاّ - وهذا هو الأرجح -
فاقرأ صحف الغد . فسرى فيها ان شخصاً يدعى بول هيلبير قد قتل ، في
فورة غضب ، خمسة مائة في جادة ادغار - كينيه . وانت تعرف خيراً من
اي انسان ما قيمة نثر الصحف اليومية الكبرى . وستفهم إذن انني لست
« غاضباً » . فانا على العكس هاديء جداً ، وارجوك يا سيدي ان تتقبل
وافر احترامي .

« بول هيلبير »

دستت المئة والرسالتين في مئة مغلف ومغلفين ، وكتبت على المغلفات
عناوين مئة كاتب وكاتبتين فرنسيين . ثم وضعتها كلها في درج من طاولتي مع
ست دفاتر من الطوابع .

وفي الخمسة عشر يوماً التالية لم أخرج من البيت الا قليلاً ، وكنت أشغل
نفسي ببطء في جريمتي . وفي المرأة التي كنت اذهب احياناً فأرى فيها نفسي ،
كنت الاحظ تغيرات وجهي بغبطة . كانت عيناى قد اتسعنا حتى كانتا
تأكلان كل سحنتي ، وكانتا سوداوين ورقيقتين تحت النظارتين ، وكنت
أديرهما كالأكرة . انهما عينا فنان وقاتل جميلتان . ولكني كنت أعول
على ان اتغير تغيراً أعمق بعد إنجاز المذبحة . وقد رأيت صورة هاتين الفتاتين
الجميلتين ، هاتين الخادمتين اللتين قتلنا سيدتهما وسلبتاها . رأيت صورتهما
قبل وبعد . كان وجهاهما قبل يتأرجحان كزهرتين عاقلتين فوق ياقتهما القطنية .
كانتا تتنفسان الصحة والكرامة المشهية . وكانت مكواة ناعمة قد موجت
شعرهما على نحو مشابه . وكان ثمة ما هو أشد طمأننة من شعرهما المجدد
وياقتهما وهياتهما التي توحى بأنهما تزوران احد المصورين ، هو تشابههما
الذي كان يبرز على الفور علاقات الدم والحدور الطبيعية للفئة العائلية . اما
بعد ، فقد كان وجهاهما يلتمعان كالخريق . كان لهما العنق العارية التي يملكها
المرصودون لقطع الرأس . تجعدات في كل مكان . تجعدات فظيعة من
الخوف والحقد ، وثنيات وثقوب في اللحم كما لو أن حيواناً ذا مخالب قد
استدار على وجهيهما . وتلك العيون ، دائماً تلك العيون الكبيرة السود التي
لا عمق لها ، والتي تشبه عيني . غير انهما لم تكونا تشابهان بعد . كانت كل منهما
تحمل ، بطريقتها الخاصة ، ذكرى جريمتها المشتركة . وكنت اقول لنفسي :
« اذا كان كافياً لتغيير هاتين السحنتين جرم لعبت فيه المصادفة اكبر الدور ،
فما الذي لا آمله من جريمة صممتها ونظمتها بنفسى ؟ » إن هذه الجريمة
ستتولي عليّ ، وستقلب قبحي المفرط في البشرية .. إن الجريمة تقطع الى
شطرين حياة من يرتكبها . ولا بد ان هناك لحظات يتمنى المرء فيها ان يراجع

الى الورا ، ولكن الجريمة قابعة هناك ، خلفك ، تسدّ عليك الطريق ، شبيهة بمعدن يطلق الشرر . ولم اكن اطلب الا ساعة واحدة لأنعم بجريمتي ، ولأحسّ ثقلها الساحق : وقد قررت ان أنفذها في أعلى شارع اوديسا . سأفيد من الاضطراب والارتباك لأهرب ، تاركاً إياهم يلتقطون موتاهم . وسأعدو ، وسأجتاز جادة ادغار كينييه ثم انعطف بسرعة في شارع دولامبر . ولن اكون بحاجة الى اكثر من ثلاثين لحظة لأبلغ باب البناية التي أسكنها . وفي تلك اللحظة ، يكون مطارديّ ما يزالون في جادة ادغار كينييه ، وسيفقدون أثرى ، ولا شك في انهم سيحتاجون الى اكثر من ساعة للعثور عليه . وسوف أنتظرهم في بيتي ، وحين أسمعهم يطرقون بابي ، أحشو مسدسي من جديد وأطلق الرصاص على فمي .

كنت أعيش في مجبوحة اكبر ، وكنت قد اتفقت مع طبّاح في شارع فافين على ان يرسل إليّ في الصباح والمساء وقعات صغيرة لذبذبة . وكان خادمه يرن جرس بابي ، فلا افتح له ، بل أنتظر بضعة دقائق ، ثم أفتح الباب فأرى في سلّة مستطيلة موضوعة على الأرض صحوناً مملّآ يتصاعد منها البخار . وكان باقياً معي في الساعة السادسة من مساء ٢٧ اكتوبر سبعة عشر فرنكاً ونصف الفرنك . وقد أخذت مسدسي ورزمة الرسائل وهبطت . وحرصت على ألاّ أغلق الباب ، لأتمكن من الدخول على نحوٍ أسرع بعد ان أنجز مهمتي . ولم اكن أحسّتي مرتاحاً ؛ فقد كانت يداي باردتين والدم في رأسي ، وكانت عيناي تدغدغانني . وجعلت أنظر الى الحوانيت ، والى فندق « ديزيكول » والى دكان القوطاسية الذي أبتاع منه أقلامني ، فلم أتعرف عليها . وكنت أقول لنفسي : « ما هذا الشارع ؟ » كانت جادة مونبارناس تغص بالناس ؛ وكانوا يدفعونني ويضربونني بمرافقهم او باكتافهم . وكنت استسلم للدفع والحذب ، تنفضى القوة لكي اندسّ بينهم . ورأيتني فجأة في وسط هذا الحشد ، وحيداً وحدة فظيعة ، وصغيراً . ما أيسر أن يؤذوني ، لو كانوا يريدون ! كنت خائفاً بسبب السلاح القابع في جيبي . وكان يُخيل إليّ انهم

على وشك ان يجلسوا بأنه كان هنا . سوف ينظرون إليّ بعيونهم القاسية ،
وسيقولون : « هيه ، ولكن ... ولكن ... » في غيظ فرح ، فيما هم
يتخطّفونني بمخالبتهم البشرية . مسحول ! سيقدفونني من فوق رؤوسهم
وسأسقط ثانية في أذرعهم كالدمية . وهكذا وجدت من الأحكم ان أوّجل
الى الغد تنفيذ مشروعى . وذهبت أتناول العشاء في « الكوبول » فدفعت
سته عشر فرنكاً وثمانين . وبقي لي سبعون سنتيماً ألقيت بها في الجدول .

وبقيت ثلاثة أيام في غرفتي من غير ان آكل أو أنام . وكنت قد أغلقت
الشبابيك ولم اكن اجروّ على الاقتراب من النافذة ولا على إشعال النور . ويوم
الاثنين دقّ أحدهم جرس بابي ، فأمسكت نِقَاسِي وانتظرت . وبعد دقيقة
دقّ الجرس مرة اخرى ، فسرت على رؤوس أصابعي وألصقت عيني
بالقفل . فلم أر الا قطعة قماش وزراً . ودق الرجل الجرس مرة ثالثة ثم
هبط : ولم اعرف من كان . وفي الليل ، حلمت احلاماً نديّة ، فرأيت نحيلاً
وماء يجري وسماء بنفسجية فوق قبة . ولم أكن أحسّ بالعطش لأنّي كنت
بين ساعة وساعة ، اقصد صنبور الماء فأشرب . ولكني كنت جائعاً . وحلمت
ايضاً بالبغي السمراء . وكان ذلك في قصر أمّرت ان يُبنى عند « الكوس نوار »
على بعد عشرين ميلاً من أبعد قرية . كانت عارية ووحيدة معي . وقد قسرتها
على الركوع بتهديد من مسدسي ، وعلى أن تعدو على أربع ، ثم أوثقتها الى
عمود ، وبعد ان شرحت لها مطولاً ما سوف أقوم به ، ثقبته بالرصاص .
ولقد اثارت هذه الصور اضطرابي الى حدّ بعيد حتى اني سررت بها . وبعد
ذلك بقيت جامداً في الظلام ، ورأسى فارغ تماماً ؛ وأخذ الأثاث يفرقع .
كانت الساعة الخامسة صباحاً ، وكنت مستعداً ان أعطي كل شيء لكي أغادر
غرفتي ، ولكني لم اكن استطيع الهبوط ، بسبب الناس الذين كانوا يسرون
في الشوارع .

وأقبل اليوم الموعود . ولم أكن أحسّ بعدُ جوعي ، ولكني أخذت
أرشح عرقاً : فبلّلت قميصي . وفي الخارج ، كانت الشمس مشرقة . وفكرت

آنذاك : « في غرفة مؤسدة ، في الظلام هو قابع . منذ ثلاثة أيام لم يأكل ولم
ينم . وقد قُرع بابه فلم يفتح . وسيهبط الساعة الى الشارع ، وسيقتل . »
كنت أخيف نفسي ، وعند الساعة السادسة مساء عاودني الجوع . وكنت
مجنوناً من الغضب . وقد اصطدمت ذات لحظة بالأثاث ، ثم أشعلت الكهرباء
في الغرف ، والمطبخ ، والمرحاض . وأخذت أغني بأعلى صوتي ، ثم غسلت
يديّ وخرجت . وقد قضيت دقيقتين طويلتين لكي أضع جميع رسائلني في
العلبة . وكنت أدسّها عشرأ عشرأ . ولا بدّ اني قد دعكت بعضها . ثم سلكت
جادة مونبارناس حتى شارع اوديسا . وتوقفت امام مرآة مصنع للقمصان ،
وحين رأيت فيها وجهي ، فكرت : « موعدا هذا المساء . »

وتمركزت في أعلى شارع اوديسا ، غير بعيد عن عمود يحمل مصباح غاز ،
وانتظرت . ومرت امرأتان . كانت احدهما تمسك بذراع الأخرى ، وكانت
الشقراء تقول :

— كانوا قد وضعوا سجّاداً على جميع النوافذ ، وكان نبلاء البلدة هم
الذين يقومون بالتمثيل .

فسألتها الأخرى : — وهل يرتدون الألبسة التمثيل ؟

— لا حاجة الى ارتداء هذه الألبسة لقبول عمل اجرته خمسة دراهم في
اليوم .

قالت السمراء ، مبهورة :

— خمسة دراهم !

وأضافت وهي تحاذيني :

— ثم أتصوّر انه لا بدّ ان يلدّهم ان يلبسوا ثياب أجدادهم .

وابتعدتا . كنت أحسّ البرد ، ولكني كنت أرشح بغزارة . وبعد لحظة ،
رأيت ثلاثة رجال يصلون ، فركتهم يمرّون : اني بحاجة إلى ستة . ونظر
إليّ الرجل الذي كان الى الشمال ، وصفق لسانه ، فصرقت عنه نظري .

وفي الساعة السابعة وخمس دقائق ، برز من جادة ادغار كينييه فريقان

يتبع اولهما الآخر . كان هناك رجل وامرأة وولدان . وكان ثمة خلفهم ثلاث نسوة عجائز . وخطوط خطوة الى الامام . كانت المرأة تبدو غاضبة ، وكانت تهزّ الولد الصغير من ذراعه . وقال الرجل بصوت ممطوط :

— إنه مزعج ، ايضاً ، هذا البرغوث !

وكان قلبي يخفق بشدة حتى ان ذراعي أخذت تولني . وتقدمت ووقفت امامهم ، جامداً . وكانت أصابعي ، في جيبي ، مائعة تماماً حول الزناد . وقال الرجل وهو يدفعني :

— عفواً .

وتذكرت اني كنت قد أغلقت باب شقتي ، فأزعجني ذلك : لا بدّ لي من إضاعة وقت ثمين في فتحه . وابتعد الجميع . فاستندتُ وتبعتهنّ آلياً . ولكنّ الرغبة في اطلاق الرصاص عليهم كانت قد غادرتني . وضاعوا في جمهور الجادة . اما انا ، فاستندت الى الجدار . وسمعت الساعة الثامنة تدق ، ثم الساعة التاسعة . وكنت اردّد لنفسني : « لماذا ينبغي ان اقتل جميع هؤلاء الأشخاص الذين سبق ان ماتوا ؟ » وأخذتني الرغبة في الضحك . واقبل كلبٌ يشمّ قدمي .

حين تجاوزني الرجل الضخم ، انتفضت ولحقت به . وكنت أرى ثنية رقبته الحمراء بين قبعته وياقة معطفه . كان يتمايل قليلاً ويتنفس بقوة ، وكان يبدو قويّ الشكيمة . وأخرجت مسدسي : كان لماعاً وبارداً ، وكان يثير اشمزازي ، ولم أتذكر جيداً ما كان ينبغي ان أفعل به . وكنت تارة انظر اليه ، وتارة انظر الى رقبة الرجل . وكانت ثنية الرقبة تبسم لي ، كهم مبتسم مرّ . وكنت أتساءل عما اذا لم اكن على وشك ان أقذف بمسدسي في ساقية ، والتفت الرجل فجأة ونظر إليّ نظرة حانقة . وخطوط خطوة الى الوراء — أردت ان ... أسألك ...

لم يكن يبدو عليه انه يسمع ، بل كان ينظر الى يديّ ، واتعمت عبارتي بمشقة :

— هل تستطيع ان ترشدني الى شارع « لاغيتيه » ؟
كان وجهه ضخماً وكانت شفتاه ترتجفان . ولم يقل شيئاً ، بل مدّ يده ،
فتراجعت خطوة اخرى وقلت له :
— اني اودّ ...

وفي تلك اللحظة عرفت اني سأخذ في الصراخ . ولم اكن اريد ذلك :
فأطلقت ثلاث رصاصات في بطنه . وسقط في هيئة بلهاء على ركبتيه وتدحرج
رأسه على كتفه اليسرى . وقلت له :

— جبان قدر | قدر ملعون !

ولذت بالفرار . وسمعته يسعل . وسمعت كذلك صراخاً وقع اقدام
خلفي . وسأل صوت : « ماذا هناك ؟ انهما يتقاتلان ؟ » ثم صاح صوت
بعد ذلك مباشرة : « الى القاتل ! — الى القاتل ! » ولم اكن افكر ان هذه
الصيحات كانت تعني ، ولكنها كانت تبدو لي مفرجة ، كصفارة رجال
الاطفاء حين كنت طفلاً . مفرجة ومضحكة بعض الشيء . كنت اعدو بكل
ما في ساقِي من قوة .

غير اني كنت قد ارتكبت غلطة لا تغتفر : فبدلاً من أن أصعد شارع
اوديسا نحو جادة ادغار كيني ، كنت أهبطه باتجاه جادة مونبارناس . وحين
لاحظت ذلك ، كان الاوان قد فات : اني في قلب الجمهور ، وكانت وجوه
دهشة تلتفت نحوي (واني اتذكر وجه امرأة شديدة الزينة كانت تضع
قبعة خضراء مزدانة بالريش) وكنت أسمع لؤماء شارع اوديسا يصرخون
« الى القاتل » خلف ظهري . وأحسست يداً تحطّ على كتفي . واذاك أضعت
رشدي : لم اكن اريد ان اموت محتقناً بهذا الحشد . وأطلقت رصاصتين
أخريين من مسدسي . فأخذ الناس يصيحون ويتدافعون مبتعدين . ودخلت
احد المقاهي ركضاً ، فنهض الزبائن لدى مروري ولكنهم لم يحاولوا أن
يوقفوني ، وعبرت المقهى بطوله وحبست نفسي في المراض . وكانت
رصاصه واحدة باقية في مسدسي .

وانقضت لحظة . وكنت الهث ، وكان كل شيء صامتاً صمتاً عجبياً ،

كما لو ان الناس كانوا يتعمّدون ان يصمتوا . ورفعت سلاحي حتى عيبي
فرايت ثقبه الأسود المستدير : إن الرصاصة ستخرج من هنا ؛ وسيحرق
البارود وجهي . وتركت ذراعي تسقط ، وانتظرت . وبعد لحظة ، قدّموا
بخطى مختلصة ؛ ولا بد انهم كانوا فرقة برمتها ، اذا حكمنا على ذلك من
وقع الاقدام على الأرض الخشبية . وتهامسوا قليلاً ثم صمتوا . اما انا ، فقد
كنت ما أزال أهت ، وكنت افكر بأنهم كانوا يسمعون لهائي من وراء الجدار .
واقرب أحدهم على مهل وهز قبضة الباب . ولا بد انه كان واقفاً عند الباب
جانبياً ليتجنّب رصاصي . ومع ذلك ، فقد أخذتني الرغبة بأن أطلق -
ولكن الرصاصة الأخيرة كانت لي .

وتساءلت : « ما الذي ينتظرونه ! لو ارتموا على الباب وبقروه على
الفور لن يكون لي وقت كافٍ لكي أقتل نفسي ، وهكذا يأخذوني حياً . »
ولكنهم لم يكونوا مستعجلين ، كانوا يتركون لي اوسع المجال لكي اموت .
كان القذرون خائفين .

وبعد لحظة ، ارتفع صوت :

- كفى ! افتح ، فلن نوذيك .

وساد صمت ، ثم استطرد الصوت نفسه :

- انت تعلم جيداً انك لن تستطيع الإفلات .

فلم أجب ، وكنت ما ازال أهت . ولكي أشجّع نفسي على اطلاق النار ،
قلت لنفسي : « لو أخذوني لانهاوا عليّ ضرباً ، ولحطّموا أسناني ، وربما
فقاؤا لي عيناً . » وقد كنت اودّ لو أعرف اذا كان الرجل الضخم قد مات .
فربما قد جرحته فحسب ... والرصاصتان الاخريان ... ربما لم تصيبا أحداً ..
كانوا يُعدّون شيئاً ما ، هل كانوا يسحبون شيئاً ثقيلاً على الارض الخشبية ؟
وأسرعت أضع فوهة سلاحي في فمي ، وعضضت عليه بقوة كبيرة . ولكني
لم اكن أستطيع ان أطلق ، حتى ولا ان أضع اصبعي على الزناد . وكان كل
شيء قد سقط مرة اخرى في الصمت .

واذ ذلك رميت مسدسي وفتحت لهم الباب .

سنة

كانت لولو تنام عارية لأنها كانت تحبّ ان تحتكّ بالأغطية ، ولأن تنظيف الثياب يكلف غالباً . وكان هنري قد احتجّ في بادئ الأمر : فان المرأة لا تنام عارية في سرير ، إن هذا لا يُفعل ، ثمّ إنه قلر . ولكن الأمر انتهى به مع ذلك الى ان يحنو حذو زوجته ، غير ان هذا كان من قبيل التساهل ؛ لقد كان صلباً كالوتد امام الناس (وكان معجباً بالسويسريين ولا سيما بسكان جنيف ، وكان يجد لديهم هيئة تثير الاحترام لأنهم كانوا من الخشب) ولكنه كان يهمل نفسه في الامور اليسيرة ، من ذلك مثلاً انه لم يكن نظيفاً جداً ، ولم يكن يغيّر سراويله غالباً ؛ وحين كانت لولو تدفعها الى الغسيل ، لم يكن يسعها الا ان تلاحظ ان داخلها كان أصفر من فرط الاحتكاك بالعورة . ولم تكن لولو شخصياً تحقر القذارة : إن القذارة توحى بنصيب اكبر من الصميمية وتعطي ظلالاً رقيقة ؛ عند تجویفات المرافق مثلاً ؛ ولم تكن تحبّ قط اولئك الانكليز ، تلك الأجسام اللاشخصية التي لم تكن تبعث منها اية رائحة . ولكنها كانت تشمئز من الوان الأهمال التي كان يرتضيها زوجها ، لأنها كانت طرائق لتدليل نفسه . ففي الصباح ، كان اذا نهض أحاط نفسه برفّة شديدة ، وبدا وكأن رأسه مليء بالأحلام ، وكانت الشمس المشرقة والماء البارد وشعر فراشي الاسنان تحدث لديه شعوراً بالظلم القاسي .

كانت لولو نائمة على ظهرها وقد ادخلت اصبع قدمها اليسرى الكبيرة

في شقّ بالغطاء ؛ لم يكن شقاً في الواقع وإنما كان فتقاً . وكان ذلك يزعجها . يجب ان ارفأ هذا غداً ، ولكنها كانت تشدّ قليلاً على الخيوط لتحسّها وهي تنقطع . ولم يكن هنري قد نام بعد ، ولكنه كان قد كفّ عن الإزعاج . وكان غالباً ما قالها للولو : ما ان يغمض عينيه حتى يُحسّه موثقاً بجبال قوية صامدة ، بحيث لا يستطيع بعد حتى ان يرفع بنصره . ذبابة ضخمة غارقة في خيوط عنكبوت . وكانت لولو تحبّ ان تشعر بهذا الجسم الكبير الأسير ملتصقاً بها . لو كان يستطيع ان يظلّ هكذا مشلولاً ، إذن لكنت أنا التي تعني به وتنظّفه كما تنظّف الطفل وتقلبه احياناً على بطنه وتضربه على مؤخرته ، وحين نجيء امه احياناً لترآه ، سأكشفه بحجّة ما ، فأرفع الأغطية وستراه امه عارياً تماماً . واعتقد أنها ستسقط منمى عليها ، فلا بد ان خمسة عشر عاماً قد انقضت من غير ان تراه هكذا .

وأمرت لولو يداً خفيفة على خاصرة زوجها وقرصته قليلاً في أرييته . وهمهم هنري ولكنه لم يأت حركة . إنه ساقط الآن في العجز . وابتسمت لولو : إن كلمة «عجز» كانت دائماً تحملها على الابتسام . حين كانت ما تزال تحبّ هنري ، وكان يتمدّد هكذا مشلولاً ، الى قريبا ، كان يروق لها ان تصوّره وقد أوثقه رجالٌ قصار على شاكلة اولئك الذين سبق لها ان رأتهم في صورة إذ كانت صغيرة وكانت تقرأ قصة غوليفر . وكانت غالباً ما تسمي هنري بـ «غوليفر» وكان هنري يحب ذلك كثيراً لأنه كان اسماً انكليزياً ولأن لولو كانت تبدو متعلمة ، ولكنه كان يوثر لو ان لولو تنطقه باللهجة الانكليزية . كم استطاعوا ان يزعجوني : لئن كان يريد من هو متعلم ، فما كان له الا ان يتزوج جان بيدير ؟ إن لها نهدين كالبوق ولكنها تعرف خمس لغات . حين كنا ما نزال نقصد «سو» يوم الأحد ، كنت أتضايق في اسرته كثيراً حتى انني كنت أتناول كتاباً، اي كتاب ، وكان ثمة دائماً من يأتي فينظر لي ما كنت أقرأه ، وكانت أخته الصغيرة تسألني : «هل تفهمين ، يا لوسي ؟ ..» والحق انه لم يكن يجلدني ذات شخصية متميِّزة رفيعة . اما

السويسريون ، فهم أشخاص متميزون رفيعون ، نعم ، لأن أخته الكبرى قد تزوجت رجلاً سويسرياً استولدها خمسة اولاد ، ثم إنهم يُدلتون عليه بجباهم . اما انا ، فلا أستطيع ان انجب اولاً ، وهذا دستوري ، ولكني لم أعتقد قط ان ما يفعله شيء متميز رفيع ، حين يخرج معي ، فيقصد المبالول دائماً ، واكون مضطرة الى ان اتفرّج على الواجهات في انتظاره ، فأية هيئة تكون لي ؟ ثم يخرج وهو يشدّ على بنطاله ويقوّس ساقيه كأنه عجوز .

وسحبت لولو إصبع قدمها من شقّ الغطاء وحركت رجلها قليلاً ، بغية ان تُحسّ نفسها ناشطة الى قرب ذلك اللحم الطريّ المأسور . وسمعت قرقرة : إن البطن الذي يقرقر يزعجني ، وانا لا أستطيع قط ان أعرف اذا كان بطنه ام بطني .

وأسلبت عينيها : انها مواعيق تقبّق في رزم من الاناييب الطرية التي يملكها جميع الناس ، مثل ريريت ، ومثلي أنا (انني لا احب ان افكر فيها ، فذلك يحدث لي وجعاً في بطني) . إنه يجبني ، إنه لا يحب أمعائي ، واذا أروه زائدتني اللودية في إناء ، فانه لن يتعرّفها ، إنه لا يني يلامسني طوال الوقت ، ولكن اذا وضع الاناء في يديه فلن يشعر بشيء ، في الداخل ، ولن يفكر « إنها لها » . لا بدّ للمرء من ان يستطيع ان يحب كل شيء في شخص ما ، البلعوم والكبد والأمعاء . ربما كان عدم حبّهم إياها راجعاً الى انعدام العادة ؛ فلو انها كانت تُرى كما يرون ايدينا وأذرعنا ، لربما أحبّوها . ولذلك ، لا بدّ ان نجوم البحر تتحابّ خيراً منّا ، انها تتمدد على الشاطئ حين تكون الشمس مشرقة فتُخرج معيداتها لتجعلها تأخذ الهواء ويستطيع الجميع ان يروها ؛ وانني أتساءل من اين نُخرج نحن معدتنا ، من السرّة .

كانت قد أغمضت عينيها ، فأخذت اسطوانات زرق تدور ، كما حدث في السوق ، أمس ، وكنت أطلق على الاسطوانات أسهماً من المطاط ، فتضيء أحرفٌ مختلفة ، حرفٌ لكل سهم ، وتؤلّف اسم مدينة ؛ وقد حال دون ان اشكّل كلمة « ديجون » بكاملها ، إذ كان يمارس عادته بالالتصاق بي

من خلف ، أتمنى ألا يكون لي ظهر ، اني لا احب ان يقوم الناس معي بأعمال ، حين لا أراهم ، فان بوسعهم ان يسرّوا ، ثم إننا لا نرى ايديهم ، وانما نشعر بها وهي تهبط او تصعد ، فلا نستطيع ان نتنبأ الى اين هي ذاهبة ؛ انهم ينظرون اليك بملء عيونهم وانت لا تراهم . ولقد كان هو يحب ذلك ؛ إن هنري ما كان له ان يفكر بذلك قط ؛ اما هو فلا يفكر الا بأن يقف خلفي ، وانا واثقة من انه كان يتعمد ملامسة موخرتي لأنه يعرف اني كنت اموت خجلاً ان تكون لي موخرة ؛ وانه ليثيره ان أحسّ بالخجل ، ولكني لا أريد ان افكر فيه (كانت خائفة) أريد ان افكر بريريت .

كانت تفكر بريريت كل مساء ، في الساعة نفسها ، حين كان هنري يبدأ في الدمدمة والأتين . ولكن حدثت مقاومة ، فقد كان الآخر يريد أن يظهر ، بل انها رأت ذات لحظة شعراً قطعاً أسود ، وحسبت ان الأمر قد انتهى ، فارتعشت لأن المرء لا يعرف ابدأ ما الذي سيرز ، ولو كان الوجه لهان الأمر ، ولكن هنالك ليالي قضتها من غير ان تغمض عينها بسبب الذكريات القذرة التي كانت قد صعدت الى السطح ؛ إنه فظيع ان يُعرف كل شيء في رجلٍ ما ، ولا سيما هذا .

اما هنري ، فشأنه مختلف ؛ اني أستطيع أن أتصوره من الرأس حتى القدمين ، وذلك ما يسترقني ، لأنه طري ، ذو بشرة رمادية باستثناء البطن الذي هو ورديّ : وهو يقول إن الرجل الجميل الجسم حين يجلس ، يُحدث بطنه ثلاث طبّات ؛ أما بطنه هو فيحدث ست طبّات ، غير انه يعدّها اثنتين اثنتين ولا يريد ان يرى الأخرى .

وشعرت بالانزعاج وهي تفكر بريريت : « لولو ، انت لا تعرفين ما عسى ان يكون جسم الرجل الجميل » إن هذا مضحك ، بالطبع بلى ، اعرف ما هو ، انها تقصد الجسم القاسي كالحجارة ، ذا العضلات ، وانا لا أحب هذا ، وقد كان لباترسون جسمٌ كهذا ، وكنت انا أحسّني طريّة ، كدودة الفراش ، حين كان يشدّني اليه ؛ اما هنري ، فقد تزوجته لأنه كان طرياً ،

لأنه كان يشبه خورياً. إن الخوارنة يوحون بالعدوبة والرقه ، كالنساء ، يجيبهم ، ويبدو أن لهم أسافل . حين كنت في الخامسة عشرة كنت أودّ لو أرفع على مهل ثوبهم وأرى رُكبتهم الرجالية وسراويلهم ، وكنت أستغرب ان يكون لهم شيء بين أفخاذهم ؛ وكنت أتمنى ان آخذ الثوب بيد ، وان أزلق اليد الأخرى على طول سيقانهم واصعد بها حتى حيث أفكّر ؛ ليس ذلك لأنني أحبّ النساء كثيراً ، ولكن آلة الرجل ، حين تكون تحت ثوب ، تشبه زهرة ضخمة (...)^١ وقد كنت أحبّ هنري لأن شينه الصغير لم يكن يقسو ابداً (....) وكنا نبقى كذلك مدة طويلة ، حتى ينام . واذ ذاك كنت أتمدّد على ظهري وافكر بالخوارنة ، وبأشياء طاهرة ، وبنساء ، وأبدأ بملامسة بطني ، بطني الجميل المسطح (...) حتى تتحقق متعتي .

الشعر القطّ ، الشعر الزنجي . والضيق في الحنجرة كالكرة . ولكنها شدّت جفونها بقوة ، واخيراً كانت أذن ريريت هي التي ظهرت ، أذن صغيرة حمراء ومذهّبة كانت تشبه السكر القندي . واذ رأتها لولو لم تصب من المتعة أكثر من المعتاد لأنها كانت تسمع صوت ريريت في الوقت نفسه . كان صوتاً ثاقباً واضحاً لم تكن لولو تحبه . « يجب ان تذهبي مع بيار ، يا صغيرتي لولو ؛ انه الشيء الوحيد الذكي الذي يمكن ان تفعله . » صحيح اني أكن كثيراً من الحب لريريت ، ولكنها تزعجني قليلاً حين تضيفني على نفسها مظهر الأهمية ، وتنسحر بما تقوله .

كانت ريريت في الليلة السابقة قد مالت في « الكوبول » ، وعلى وجهها سيماء التعقل والقسوة : « انك لا تستطيعين ان تبقي مع هنري ، ما دمت لا تحبينه بعد ، سيكون ذلك جريمة . » انها لم تكن تضيّع مناسبة من غير ان تقول عنه سوءاً ، وانا أجد ان ذلك ليس لطيفاً منها ، فهو قد كان دائماً رقيقاً معها ؛ من الممكن انني لا أحبه بعد ، ولكن ليس من شأن ريريت ان تقول

(المترجم)

(١) هذا بضمة أسطر رأينا حذفها ...

لي ذلك ؛ إن كل شيء يبدو معها بسيطاً وبسيراً : إن المرء يحب او يكفّ عن الحب ؛ ولكني انا لست بسيطة . إن لي اولاً عاداتي هنا ، ثم اني احبه كثيراً ، فهو زوجي . كان بودّي أن أضربها ، وإن بي رغبة لأن اوجعها ، لأنها سمينة . « سيكون ذلك جريمة » لقد رفعت ذراعها فرأيت إبطها ، وانا احبّها حباً أفضل حين تكون ذراعاها عاريتين . الإبط . لقد انفتح فكأنه فم ، ورأت لولو لحماً أشقر ، متغصّناً بعض الشيء ، تحت زغب أجعد يشبه الشعر ؛ إن ييار يدعوها « منيرفا السمينة » وهي لا تحبّ هذا على الاطلاق .

وابتسمت لولو لأنها كانت تفكر بأخيها الصغير روبر الذي قال لها يوماً وهي في مبادها : « لماذا يكون لك شعرٌ تحت الذراعين ؟ » فأجابته يومذاك : « إن هذا مرض » . كانت تحب كثيراً أن ترتدي ثيابها بوجود أخيها الصغير ، اذ كانت لديه دائماً أفكارٌ طريفة يتساءل المرء عندها من أين يأتي بها . وكان يمسّ جميع حاجات لولو ، ويطوي الأثواب بعناية ، وكانت له يدان رشيقتان جداً . بحيث انه سيكون فيما بعد خياطاً ماهراً . إنها مهنة لذيذة ، وسوف أرسم انا أقمشة له . إن مما يثير الفضول ان يفكّر ولدٌ في ان يصبح خياطاً ؛ ولو انني كنت صبيّاً ، فيخيّل إليّ اني كنت أودّ لو أكون رحالة او ممثلاً ، لا خياطاً ؛ غير انه كان ابدأ حالماً ، إنه لا يتكلم بما فيه الكفاية ، وهو يلاحق فكرته ؛ وقد كنت انا اودّ ان اكون راهبة لأذهب فأجمع الصدقات من البنائات الجميلة . أحسنّ عذوبة في عينيّ ، عذوبة اللحم الطريّ ، سأستسلم للنوم . وجهي الجميل الأصفر تحت كساء الراهبة ؛ إذن لكنت لي هيئة متميّزة ، ولكنك أرى مئات من المداخل المعتمة ، ولكانت الخادم تشعل النور على الفور تقريباً ، ولكنك ألمح لوحات للأسر ودمى برونزية على الطاولات . ومشاجب . وتأتي السيدة ويدها دفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكاً وتقول لي : « خذي ، ايها الأخت » . « شكراً يا سيدتي ، ليباركك الرب . الى المرة القادمة . » ولكني ما كنت لأكون اختاً حقيقية ، بل كنت في الاوتوبيس أغمز ذات يوم رجلاً ، فيذعر باديء ذي بدء ،

ثم يتبعني وهو يروي لي قصصاً ، فأقتاده الى حيث يقبض عليه شرطي .
اما الصدقات ، فأحتفظ بها لنفسي . وما الذي كنت أشتريه ؟ واقعياً . هذا
سخيف .

إنّ عينيّ تيمعان ، ذلك للذيد ، فكأنهما بُلّتا بالماء ، وجسمي كلّهُ مرتاح .
التاج الجميل الأخضر ذو الزمرّد واللازورد . ودار التاج ودار ، فاذا هو
رأس جاموس فظيع ؛ ولكن لولو لم تكن خائفة . انها تقول : « طيور الكائنات ! »
كان نهرٌ طويل أحمر يسيل عبر أرياف قاسية . وكانت لولو تفكر في مُقطّعتها
الآلية ثم في الغومينا .

« سيكون ذلك جريمة ! » وانفضت وانتصبت في ليلها ، قاسية العينين .
انهم يعذبونني . اترام لا يُحسّون بذلك ؟ أنا أعلم جيداً ان ريريت تفعل
ذلك بقصد حسن ، ولكنها ينبغي أن تترك ، هي الحكيمة بالنسبة للآخرين ؛
اني بحاجة لأن افكر . لقد قال لي : « ستأتين انا » وهو ينظر إليّ بعينين من
جمر . « ستأتين الى بيتي انا . انني اريدك كلّك لي . » اني أشمّر من عينيه
حين يريد أن يجعل نفسه منوماً مغنطيسياً ، وكان يعجن لي ذراعي ؛ وحين
أرى عينيه تينك افكر دائماً بالشعر الثابت على صدره . ستأتين ، اني اريدك
كلّك لي ؛ كيف يمكن للمرء أن يقول أشياء كهذه ؟ انا لست كلباً .

حين جلست بسمتُ له ، وكنت قد غيّرت مسحوق من أجله ، وكنت
قد كحلت عينيّ لأنه يحبّ هذا ، ولكنه لم ير شيئاً ، إنه لا ينظر الى وجهي ،
بل كان ينظر الى نهديّ ، وقد كنت اودّ لو يحنّ عليّ صدري ، لأضايقه ،
بالرغم من اني لا أملك الا نهدين صغيرين جداً . ستأتين الى مقصورتني في
نيس . وقد قال انها مقصورة بيضاء ذات سلّم مرمرى وانها تطلّ على
البحر ، وانا سنعيش عارئين طوال النهار ، ولا بد ان من الغرابة ان تصعد
امرأة سلّمأ وهي عارية ؛ سأجبره على ان يصعد قبلي ، حتى لا ينظر إليّ ؛
والا لما استطعت ان ارفع قدمي ، بل سأبقى جامدة وانا أتمنى من كل قلبي
ان يصبح أعمى ؛ والحق ان ذلك لن يغيّرني ابداً ، فهو حين يكون هنا ،

أحسبني دائماً عارية . لقد أخذني من ذراعيّ وكان الحبث في عينيه ، فقال لي : « انك في جلدي ! » فأخذني الخوف ، وقلت : « نعم » ؛ اريد ان أسعدك ، سندهب فنتزّه في السيارة ، وفي الباخرة ، سنقصد إيطاليا وسأعطيك كل ما تشاء . ولكن مقصوريّه تكاد تكون غير موثقة ، وسننام على الأرض فوق فراش . انه يريد ان أنام بين ذراعيه ، وسأحس رائحته ؛ وسأحب كثيراً صدره لأنه عريض أسمر ، ولكنّ فوقه ركاماً من الشعر . ليت الرجال كانوا بلا شعر ؛ أما شعره فأسود رقيق كالزبد ، أداعبه أحياناً وأحياناً أشمّز منه ، فأترجع الى أبعد حد ممكن ، ولكنه يلصقني به . انه يريد ان انام بين ذراعيه ، وسيشدّني بين ذراعيه وسأشمّ رائحته ، وحين يهبط الليل ، سنسمع هدير البحر ، وهو قادر على ان يوقظني في منتصف الليل اذا كانت لديه الرغبة في ذلك : ولن أستطيع ابدأ ان أنام باطمئنان الا حين أكون في الطمث ، لأنه في تلك الفترة سيدعني وشأني بلا شك (....) لماذا ينبغي ان تكون لنا أجسام ؟

فتحت لولو عينيها ، وكانت الستائر حمراء بفعل نورٍ كان يصدر عن الشارع . وكان في المرأة انعكاس أحمر ؛ وكانت لولو تحب هذا النور الأحمر ، وكان ثمة أريكة تبرز في ظلّ صيني عند النافذة . وعلى ذراع الأريكة ، كان هنري قد وضع بنطاله ، وكانت رافعاته تتدليان في الفراغ . يجب أن أشتري له مشدّاً للرافعة . اوه ، لا اريد ، لا اريد ان أذهب . سيقبلني طوال النهار وسأكون له ، وسأحقق له لذته ، وسينظر إليّ ؛ وسيفكر : « انها لذتي . لقد لمستها هنا وهناك ، وبوسعي ان أعيد العمل متى حلا لي . » في بور - رويال .

وارسلت لولو ضربات من قدمها على الأغطية ؛ كانت تحتقر بيار حين تذكر ما حدث في بور - رويال . كانت خلف السياج ، وكانت تحسب أنه كان باقياً في السيارة ، وانه كان ينظر في الجارطة ، وفجأة رأته وقد جاء بخطى مختلطة خلفها ، وكان ينظر اليها .

وارسلت ضربة من قدمها الى هنري ؛ إن هذا سيستيقظ ؛ ولكن هنري ارسل تنهدة ولم يستيقظ . اودّ لو أتعرف على فتى جميل ، طاهر كالفتاة ، ولن يمسّ أحدنا الآخر ، وسوف ننزّه على الشاطئ وأحدنا يمسك بيد الآخر ، وفي الليل ننام في سريرين توأمين ، وسنبقى كالأخ والأخت ونتحدث حتى الصباح . او اني افضل ان اعيش مع ريريت ، فان النساء فيما بينهنّ شيء فائن ؛ إن لها كتفين رياتين ملساوين ، وقد كنت شقية جداً حين كانت تحب فرنيل ، ولكن كان يثيرني ان افكر بأنه كان يداعبها ، وانه كان يمسّ يديه متمهلاً على كتفيها وخاصرتها وانها كانت تنهّد . واني لأتساءل كيف يمكن ان تكون سحتها اذ تكون ممدّة على هذا النحو ، عارية تماماً ، تحت رجل ، وهي تحسّ يدين تنزّهان على لحمها . اني اذذاك لن ألسها ولو أعطيتُ ذهب العالم كلّهُ . فانا لا أدري ما عساني أفعل بها ، حتى ولو كانت تريد ، حتى ولو قالت لي : « اني اريد » ، لا ادري ، ولكن لو كنت كائناً لا يُرى ، فاني كنت أتمنّى ان اكون هناك ، إذ هي في تلك الوضع ، وانظر الى وجهها (وستأخذني الدهشة ان ارى أنّ لها بعدُ هيئة منيرفا) وان الامس بيدٍ خفيفة ركبتيها المنفرجتين ، ركبتيها الورديتين ، وان أسمعها تنّ .

وأخذت لولو ضحكة قصيرة ، بينما كان حلقها جافاً : عجباً ، كيف تحظر للانسان احياناً مثل هذه الأفكار . لقد سبق لها ان اخترعت مزة ان يبار كان يريد ان يغتصب ريريت . وكنت أساعده ، فأمسك ريريت بين ذراعيّ . أمس . كان خدّاهما ملتھين وكنا جالستين على اريكتها ، وكنا متلاصقتين ، وكانت ساقاها مشدودتين ، ولكننا لم نقل كلمة ، ولن نقول كلمة ابداً .

وأخذ هنري يشخر ، فصفرت لولو . اني هنا ، لا أستطيع ان أنام ، بل أثير أعصابي بنفسي ، وهو ، البليد ، يشخر ، لو أنّه يأخذني بين ذراعيه ، لو أنّه يتهل إليّ ، لو أنّه يقول لي : « انك كل شيء بالنسبة لي ، يا لولو ،

انني أحبّك ، فلا تذهبي ! « لقدّمت له هذه التضحية ، ولقيت ، أجل ،
لبقيت معه طوال حياتي ، لإرضاء له .

٢

جلست ربريت على سطيحة « اللوم » وطلبت كأس بورتو . وكانت
تُحسّ التعب ، وكانت حافقة على لولو :

« .. ثم إن للبورتو الذي يقدمونه طعم الفلين ، ولولو تسخر بذلك لأنها
تأخذ فناجين قهوة ، غير ان المرء لا يستطيع ان يأخذ فناجان قهوة ساعة تناول
المشهيّات ؛ انهم هنا يأخذون قهوة طوال النهار او قهوة بالحليب لأنهم
فقراء ، ولا بدّ ان ذلك يثير أعصابهم ؛ اما انا فلن أستطيع ، بل كنت جديرة
بان أصفق الحانوت كلّهُ بأنوف الزبائن ، إنهم اناسٌ لا حاجة بهم الى ان
يقصدوا المقاهي . ولست ادري لماذا هي تعطيني دائماً مواعيد اللقاء في مونبارناس-
ولو أنها تلقاني في « كافيه دولاييه » او في « البام بام » لكان ذلك ايضاً قريباً
من بيتها ، ولكان ذلك يُبعدي انا عن عملي قليلاً ؛ انني لا أستطيع ان أقول
كم يُحزني ان ارى دائماً هذه الرووس ، إنّ عليّ ان أجيء الى هنا كلما
كانت لديّ دقيقة فراغ ، ولو كان الأمر على السطيحة هان ، اما هنا ، في
الداخل ، فتنبعث رائحة غسيل وسخ ، وانا لا احبّ الفاشلين . وحتى على
السطيحة أحسّتي في غير مكاني لإنني نظيفة بعض الشيء ، ولا بدّ ان المارة
يدهشهم ان يزوني وسط هؤلاء الناس الذين بلغ بهم الأمر ألاّ يخلقوا ذقونهم ،
وهاتيك النساء اللواتي لا ادري كيف أصف هيأتهنّ . لا بدّ أن المارة يقولون
فيما بينهم : « ما الذي تفعله هنا ؟ » أنا أعلم ان هذا المقهى تقصده احياناً
اميركيات غنيّات غنيّ كافيّاً حين يحلّ الصيف ، ولكن يبدو أنهنّ يتوقّعن
الآن في انكلترا بسبب الحكومة القائمة عندنا ، ومن أجل هذا لا تروج تجارة

البذخ ، ولقد بعثُ بنصف القيمة التي بعثُ بها في مثل هذه الفترة من العام الماضي ، واني أتساءل كيف يصنع الآخرون ، ما دمت أنا أمهر البائعات ، هذا ما قالته لي السيدة دوباش ، واني أرثي ليونيل الصغيرة ، فهي لا تحسن البيع ، وهي لم تستطع ان تبيع درهماً واحداً فوق مرتبها ، هذا الشهر ؛ وإن من تبقى طوال النهار واقفة على قدميها تودّ ان تسترخي قليلاً في مكان ممتع ، مع شيء من الترف ، وشيء من الفنّ ، ومع خدّم مهذبين ، وتودّ ان تغمض عينيها وتستنيم ، ثم لأنها بحاجة الى موسيقى خافتة ، ولن يكلفها غالباً جداً ان تذهب بين الفينة والفينة الى مرقص « الامباسادور » ؛ ولكن خدّم هذا المقهى وقحون جداً ، والملاحظ انهم يخدمون زبائن متواضعين . باستثناء الأسمر القصير الذي يخدمني ، فهو لطيف ؛ وأحسب انه يروق لولو ان تحسّ نفسها محاطة بهؤلاء الأشخاص جميعاً ، فانه يخيفها ان تقصد مكاناً أيقاً بعض الشيء ، والحق انها ليست واثقة من نفسها ، وهي تشعر بالخوف لمجرد ان يكون لرجلٍ بعض الحركات المميّزة ، وهي لم تكن تحبّ لويس ، حسناً أعتقد ان بوسعها هنا ان تحسّ بالطمأنينة ، ففي الحضور من لا يضعون حتى ياقات مستعارة ، وهم بمظهر الفقراء الذي يبدو عليه وبغلايينهم وبهذه العيون التي يرمونك بها ، لا يحاولون حتى ان يخفوا شيئاً ، ويرى المرء انهم لا يملكون مالاً ينفقونه على النساء ، ومع ذلك فليس هذا هو ما يفتقر اليه الحيّ ، بل انه يثير الاشمئزاز ؛ لكأن من يراهم يعتقد انهم على وشك أن يأكلوك وهم مع ذلك غير جديرين بأن يقولوا لك في شيء من اللطف انهم راغبون فيك ، وفي اجراء الامور بشكل يرضيك .

اقرب الخادم :

— هل تريدن قرح البورتو بلا ماء ، يا آنسة ؟

— نعم . شكرأ .

وأضاف ، بصوت ودّي :

— ما أجمله طقساً !

قالت ريريت : - لقد آن الاوان .

- صحيح . كاد يخيّل الينا ان الشتاء لن ينتهي .

ومضى فبعثته ريريت بعينها ، وفكرت : « احبّ هذا الخادم كثيراً ، فهو يعرف كيف يلتزم حدّه ؛ إنه ليس أليفاً ، ولكن لديه دائماً كلمة يقولها لي ، عناية صغيرة خاصة . »

وكان ثمة شاب هزيل مقوّس ينظر اليها بالحاح ؛ وهزّت ريريت كتفيها ثم أولته ظهرها : « إن من يريد أن يغازل النساء ، يستطيع على الأقل ان يلبس ثياباً نظيفة . هذا ما سأجيبه به لو وجّه إليّ الحديث . انني أتساءل لماذا لا تذهب . إنها لا تريد ان تحدث مشقّة لهنري ، وانا أجد ذلك جميلاً أكثر مما ينبغي : انه لا يحقّ لامرأة ، رغم كل شيء ، ان تفسد حياتها من أجل عتّين . » كانت ريريت تحقّر العتّينين ، وكان هذا امرأ يتصل بالجسم . وقالت في عزم : « يجب ان تذهب ، فسعادتها هي التي في الميزان ، وسأقول لها إن على المرء ألاّ يلعب بسعادته . لا يحقّ لك يا لولو ان تلعب بسعادتك . بل لن أقول لها شيئاً على الاطلاق ، كفى ، لقد قلت لها مئة مرة بأننا لا نستطيع ان نحقق سعادة الناس بالرغم عنهم . »

وأحسّت ريريت بفراغ كبير في رأسها ، لانها كانت متعبة جداً ، وكانت تنظر الى البورتو في كأسها لزجاً كالكراميل المائع ، وكان صوت يردّد في داخلها : « السعادة ، السعادة » وكانت كلمة جميلة معطّفة وجادة ، وكانت تفكر بأنهم لو سألوها رأيها في مسابقة « باري - سوار » لقاتل لأنها أجمل كلمة في اللغة الفرنسية . « هل فكّر فيها أحد؟ لقد ذكروا : الطاقة ، الشجاعة ، وذلك لأن الذين ذكروها رجال ، وكان لا بدّ من امرأة ، فالنساء هن اللواتي يستطعن ان يجدن هذا ، وقد كان ينبغي رصد جائزتين ، احدهما للرجال ، وفي هذه الحالة تكون كلمة « شرف » هي أجمل كلمة ؛ والاخرى للنساء ، وكنت انا التي سأربح ، كنت سأقول « سعادة » . سأقول لها : « ليس لك الحق بأن تفوتني سعادتك . سعادتك يا لولو ، سعادتك . » وانا

شخصياً أجد بيار ممتازاً ، فهل اولاً رجل بكل ما في الكلمة من معنى ، ثم إنه ذكي ، وهذا لا يُفسد شيئاً ، وهو يملك المال ، وسيولها كل عنيته . إنه من هؤلاء الرجال الذين يحسنون ازالة صعوبات الحياه الصغيرة ، وهذا ما يروق للمرأة ؛ اني احب ان يعرف الرجل كيف يأمر ، ولكنه هو يُحس التحدث الى الخدم والى الخشم ، فاذا هم يطيعونه ، وانا أسمى هذا نفوذاً ؛ ولعل ذلك هو أشد ما يفتقر اليه هنري . ثم إن هناك اعتبارات للصحة ، فاذا ذكرنا اباه ، حقاً لنا ان ننصحها بالتنبه والحذر ، فلطيف جداً ان تكون رقيقة العود ، شفاقة ، وألاً تُحسّ قطّ بالجووع ولا بالنعاس . وان تنام أربع ساعات في الليل ، وان تعدو في باريس طوال النهار لتضع مشاريع أقمشة ، ولكن في هذا انعدام وعي وإحساس ، إنها بحاجة الى ان تتبع حمية عقلانية ؛ اني اقرها على ان يكون طعامها قليلاً في كل وجبة ، ولكن يجب ان تضاعف الوجبات وان تأكل في ساعات محدّدة . وستحرز كسباً كبير اذا أرسلت لمدة عشرة اعوام الى مصحح .

وحدثت بنظرة متبرمة ساعة ساحة مونبارناس التي كان عقرباها يشيران الى الحادية عشرة والدقيقة العشرين . « اني لا أفهم لولو ، إن لها مزاجاً غريباً ، فأنا لم أستطع قط أن أعرف هل كانت تحب الرجال ام انها تشمّر منهم : على انها ينبغي ان تكون مسرورة مع بيار ، فان ذلك على اي حال يبدل قليلاً جوّ صاحبها الذي تعرّفت عليه في العام الماضي ، جوّ « رابو » . وأمتعتها هذه الذكرى ولكنها أمسكت بسمتها لأن الشاب الهزيل كان ما يزال ينظر إليها ، وقد فاجأت نظرتة وهي تدبر رأسها . لقد كان رابو ذا وجه منقوش بالنقط السود ، وكانت لولو تتسلى بانزاعها بأن تضغط على البشرة بأظافرها : « إن ذلك يثير الاشمزاز ، ولكنها ليست غلطتها ، فان لولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل ، أما أنا فأعبد الرجال الأنيقين . إن أشياء الرجال اولاً شيء جميل جداً ، قمصانهم وأحذيتهم وربطات عنقهم اللامعة ؛ ربما كان هذا خشناً ، ولكنه عذب جداً ، وقوي ، قوة

عذبة ، وهو أشبه برائحة تبغهم الانكليزي وماء الكولونيا ، وبشرتهم حين يكونون قد حلقوا ذقونهم جيداً .. ليست .. انها ليست كبشرة المرأة ، بل كأنها جلد قرطي ، وإن اذرعتهم القوة تغلق عليك ، فتضعين رأسك على صدرهم ، وتحسين برائحتهم القوة العذبة ، رائحة الرجال المتأقين ، لأنهم يهمسون لك كلمات عذبة ؛ ولهم أشياء جميلة ، وأحذية جميلة خشنة من جلد البقر ، وهم يهمسون لك « يا حبيبي ، يا حبيبي الرقيقة » فتحسّين انك تراخين .

وفكرت ريريت بلويس الذي كان قد هجرها في العام الفائت فانتبض قلبها : « إنه رجل يحبّ نفسه وله حركات كثيرة ، وخاتم ، وعلبة سكاير ذهبية ، واهواء صغيرة مهووسة .. الحق ان هؤلاء يمكن ان يكونوا خبثاء أحياناً ، فيكونوا اسوأ من النساء . اما الأفضل فهو الرجل ذو الأربعين الذي يتأثّق ويهمّ بنفسه وقد بدأ شعر صدغيه المشرّح الى خلف يشيب ، الرجل الجلف ذو الكتفين العريضين ، الرياضي جداً ، ولكنه يعرف الحياة ويكون طيباً لأنه يكون قد عاف وتألّم . اما لولو ، فليست إلاّ معترة ، وهي محظوظة بأن تكون لها صديقة مثلي ، لأن بيار قد بدأ يضجر ، وهناك من سيفيد من ذلك ، بينما أنا اقول له دائماً ان يصبر ، وحين يكون رقيقاً معي بعض الرقة ، لا يبدو عليّ التنبّه الى ذلك ، فأبدأ بالتحدث عن لولو وأجد دائماً الكلمة التي تجعل لها قيمة ، في حين انها لا تستحقّ الحظ الذي اوتيته ، إنها لا تدرك ذلك ، وأنا أتمنى لها ان تعيش قليلاً وحيدة مثلي منذ ذهب لويس ، واذاك سترى ما معنى ان تعود وحيدة الى غرفتها في المساء، بعد ان تكون قد عملت طوال النهار ، فتجد غرفتها فارغة وتموت رغبةً في ان تريح رأسها على كتف رجل . إنها ستساءل أين تجد الشجاعة على ان تنهض صباح اليوم التالي وان تعود الى العمل وان تكون فاتنة ومرحة ، وان تمنح الجميع الشجاعة ، في حين انها تفضل ان تموت على ان تتابع هذه الحياة .

ودقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة ، وكانت ريريت تفكر بالسعادة ،

بالطائر الأخضر، طائر السعادة، طائر الحب المتمرد. وانتفضت: « لقد تأخرت لولو ثلاثين دقيقة، هذا طبيعي. إنها لن تترك زوجها أبداً، فهي لا تملك القدر الكافي من الإرادة لتفعل ذلك. والحق أنها انما تبقى معه بدافع من الاحترام: انها تخونه، ولكن ما داموا يقولون لها « سيدتي » فهي تفكر بأن ذلك لا أهمية له. إنها تقول عنه أشياء على غاية السوء، ولكن يجب ألا يُردّد أحدٌ على مسمعاها في اليوم التالي ما قالته، والا فانها ستغضب وستحمرّ خجلاً». ولقد فعلت كل ما كان بوسعي، وقلت لها ما كان عليّ ان أقول لها، فهي وشأنها. »

وتوقفت سيارة تاكسي أمام « الدوم » فهبطت منها لولو. وكانت تحمل محفظة ضخمة وكان على وجهها بعض سيماء الجلد. وصاحت من بعيد:

— لقد تركت هنري.

واقتربت وهي منحنية تحت وطأة محفظتها، وكانت تبسم. وقالت ريريت مأخوذة:

— ماذا يا لولو؟ انك لا تقصدين؟..

قالت لولو:

— بلى، لقد انتهى الأمر وتركته.

وظلّت ريريت غير مصدّقة:

— وهل عرف ذلك؟ هل أخبرته به؟

فأصبحت عينا لولو عاصفتين وقالت:

— طبعاً!

— حسناً يا صغيرتي لولو!

ولم تكن ريريت تدري بمَ ينبغي ان تفكر، ولكنها قدّرت بأن لولو كانت بحاجة، على أي حال، للتشجيع، فقالت:

— ما أعظم هذا، وكم كنت شجاعة!

وأخذتها رغبة بأن تضيف: « ترين ان ذلك لم يكن صعباً جداً » ولكنها

تمالكت نفسها . وظلّت لولو صامته كأنها لتتيح فرصة الإعجاب بها : كان وجهها محمراً وعيناها ملتفتين . وجلست وهي تضع محفظتها بقربها . وكانت ترتدي معطفاً صوفياً رمادياً ونطاقاً جلدياً وصدرة صفراء فأنحة ذات ياقة ملتفة . وكانت عارية الرأس ، ولم تكن ربريت تحبّ ان تنزّه لولو عارية الرأس : لقد تعرّفت على الفور هذا المزيج الغريب من اللوم والتسلية الذي كانت غارقة فيه ؛ وكانت لولو تُحدث لديها دائماً هذا التأثير . وقالت ربريت مؤكّدة : « ان ما احبّه فيها إنما هو حقاً حيويتها . »
قالت لولو :

— في خمس ثوان . لقد قلت له ما كان في قلبي . فبهت .

قالت ربريت :

— اني لا أصدق ذلك . ولكن ماذا دهاك يا صغيرتي لولو ! لقد اكلت لحم الأسد ؛ لقد كنت حتى مساء أمس أراهن بقطع رأسي أنك لن تركبه .
— كان ذلك بسبب أخي الصغير . اني أقرّه ان يتعالى عليّ ، ولكنني لا أحتمل ان يمسّ عائلتي بأي سوء .
— ولكن كيف حدث ذلك ؟

قالت لولو وهي تتلوّى على كرسيها :

— ابن الخادم ! إن خدم « اللوم » لا يكونون قط موجودين حين نناديهم !
أيكون الأسمر القصير هو الذي يخدمنا ؟

قالت ربريت :

— نعم . هل تعلمين أني حصلتُ عليه ؟

— حقاً ؟ إذن احترسي من سيدة المغاسل ، فهو دائماً محشور معها . إنه يغازلها ، ولكنني أعتقد ان هذه حجة يتلرّع بها ليرى السيدات الداخلات الى المغاسل . فهنّ حين يخرجن ينظر في أعينهن لينجعل وجوههنّ تحمرّ خجلاً . وبالمناسبة ، سأتركك دقيقة ، فيجب ان أهبط لأتلفن ليار ، وسوف ينشده ! إذا رأيت الخادم ، أوصيه على فنجان قهوة بالحليب من أجلي .

سأغيب لحظة وسأروي لك كل شيء .

ونهضت ثم خطت بضع خطى وعادت الى ريريت :

— اني سعيدة جداً يا عزيزتي ريريت .

قالت ريريت وهي تأخذ بيديها :

— حبيبي لولو !

فتخلّصت لولو واجتازت السطیحة بخطوة خفيفة . ونظرت اليها ريريت

وهي تبتعد . « ما كنت أحسبها يوماً قادرة على هذا . » وفكرت مندهشة

« كم هي جنلى ! إنه يلبق لها ان تترك زوجها . لو انها استمعت إليّ لم

ذلك منذ وقت طويل . وعلى أي حال ، إن الفضل يعود إليّ ؛ والحق ان

لي تأثيراً كبيراً عليها . »

ورجعت لولو بعد لحظات ، فقالت :

— لقد شدّه ييار ، وكان يريد تفاصيل ، ولكنني سأعطيه إياها بعد قليل ،

إذ انني سأتناول الغداء معه . وهو يقول إنه ربما كان بإمكاننا ان نذهب مساء

الغد .

قالت ريريت :

— كم انا سعيدة يا لولو . إروي لي بسرعة . هل قررت ذلك هذه الليلة ؟

فقالت لولو بتواضع :

— انني ، لو تعلمين ، لم اقرّر شيئاً ، وانما تقرّر ذلك من تلقاء نفسه .

وطرقت الطاولة بعصبية :

— خادم ! خادم ! إن هذا الخادم يزعجني ، اريد فنجان قهوة بحليب .

فصُدّت ريريت : فلو كانت بدل لولو وفي ظروف خطيرة مثل ظروفها ،

لما أضاعت وقتها في الجري وراء القهوة بالحليب . إن لولو كائن ساحر ،

ولكن من المدهش ان تكون تافهة الى هذا الحدّ ، إنها عصفور .

وانفجرت لولو ضاحكة :

— ليتك رأيت سحنة هنري !

قالت ريريت بلهجة جادة :

— إنني أتساءل عما ستقول أمك .

فقالت لولو بلهجة واثقة :

— أمي ؟ ستكون مسرورة .. لقد كان سيء الأدب معها كما تعلمين ، وكانت حاقدة عليه . لم يكن ينقطع عن لومها بأنها أساءت تربيتي ، واني كنت كذا وكذا ، وان من الواضح اني تلقيت تربية سوية . والحق ان ما فعلته ، انما فعلته من أجلها تقريباً .

— ولكن ماذا حدث ؟

— لقد صفع روير .

— ولكن هل اتى روير الى بينكم ؟

— نعم ، لقد مرّ هذا الصباح لأن أمي تريد ان تدرّبه عند غومبيز . وأظنّ اني أخبرتك ذلك . لقد مرّ بنا بينما كنا نتناول طعام الفطور ، وصفعه هنري .

فسألته ريريت وقد تضايقت بعض الشيء ، وكانت تحتقر طريقة لولو

في رواية القصص :

— ولكن لماذا ؟

قالت لولو بغموض :

— لقد تبادلا الكلمات ، ولم يرد الصغير ان يراجع ، بل صمد أمامه وجابهه بالاهانة لأن هنري كان قد دعاه « قليل التربية » وهو لا يعرف غير هذه العبارة بالطبع . وكنت أتلوى . واذاك نهض هنري ، وكنا نتناول الفطور في الاستديو ، فوجه إليه صفة تمنيت معها لو أستطيع قتله .

— وعند ذلك ذهبت ؟

قالت لولو مندهشة :

— ذهبتُ ؟ الى اين ؟

— كنت أظنّ انك في تلك اللحظة قد تركته . إسمعي ، يا صغيرتي لولو ،

يجب ان تروي لي ذلك بانتظام ، وإلاّ لما فهمت شيئاً .

وأضافت ، وقد داخلها شكّ :

— قولي لي ، هل تركته حقاً ؟

— طبعاً . ها قد مضى عليّ ساعة وانا أشرح لك ذلك .

— حسناً . إذن فقد صفع هنري رويبر . وبعد ذلك ؟

قالت لولو :

— بعد ذلك ، حبسته على الشرفة ، وكان ذلك طريفاً جداً . كان ما يزال يرتدي منامته ، وكان يذق الباب ، ولكنه لم يكن يجروّ على ان يكسر الزجاج لأنه بخيل كالقملة . ولو كنت بدلاً منه لحطمت كل شيء حتى ولو اضطرت لي ان ادمي يديّ . ثم جاءت أسرة « تكسييه » ، فأرسل إليّ البسمات عبر الزجاج ، وكان يتظاهر بأن الأمر كان مزاحاً !
وكان الخادم ماراً فأمسكت لولو بذراعه :

— هانت ذا إذن يا خادم ؟ هل يزعجك بأن تأتيني بفنجان قهوة بجليب ؟

وشعرت ريريت بالضيق فبسمت للخادم بسمة لا تخلو من تواطؤ ولكن الخادم ظلّ رصيناً وانحنى بمعاملة ملائى بالعتاب . وحققت ريريت قليلاً على لولو : انها لم تكن تعرف قط ان تتخذ اللهجة المناسبة مع من هم دونها ، فهي تارة أليفة اكثر مما ينبغي ، وطوراً متطلبة وجافة اكثر مما ينبغي .

وأخذت لولو تضحك :

— أضحك لأنني أتمثل هنري وهو في منامته على الشرفة ، كان يرتعش من البرد . هل تعرفين ما الذي فعلته لأحبسه على الشرفة ؟ كان داخل الاستوديو ، وكان رويبر يبكي فيلقي عليه المواعظ . وفتحت النافذة وقلت : « انظر يا هنري ! إن هناك سيارة صدمت بائعة الزهور . » فاقترب مني : إنه يجب كثيراً بائعة الزهور لأنها قالت له إنها كانت سويسرية وهو يظنّ انها مغرمة به . فقال : « اين ذلك ؟ اين ذلك ؟ » فراجعت على مهل ، وعدت

الى الغرفة وانا أغلق الباب . وصحت به عبر الزجاج : « إن ذلك سيعلّمك كيف تتصرف مع أخي بوحشية . » وتركته أكثر من ساعة على الشرفة ، وكان ينظر إلينا بعينين حمرولين ، وكان مزرقّ اللون من الغضب ، وكنت أنا أخرج له لساني وأعطي رويبر حلويات ؛ وبعد ذلك أخذت أحمل حوائجي الى الاستوديو وارتديت ثيابي على مرآى من رويبر لأنني أعرف ان هنري يكره ذلك : كان رويبر يقبّل ذراعي وعنقي كرجل صغير ، وهو للذيد ؛ وقد كُنّا نتصرّف كما لو أن هنري لم يكن موجوداً . وقد نسيت من جراء ذلك ان أغتسل .

قالت ريريت وهي تنفجر ضاحكة :

— وذلك الذي كان خلف الباب الزجاجي ؟ إن هذا مشهد مضحك جداً ! وكفّت لولو عن الضحك ، وقالت بلهجة جادة :
— أخشى ان يكون قد أخذ برداً ! إن المرء لا يفكر وهو غاضب .
ولكنها استطردت في جدل :

— كان يمدّ لنا قبضته وكان يتكلم طوال الوقت ، ولكنني لم اكن افهم نصف ما كان يقوله . ثم ذهب رويبر ، واذذاك قرع آل تكسيه الباب فأدخلتهم . وحين رأهم جعل يتسم ، بل ينحني علامة الاحترام والتبجيل ، وكنت انا أقول لهم : « انظروا الى زوجي ، حبيبي الكبير ، الا يشبه سمكة في حوض زجاجي ؟ وكان آل تكسيه يجيّونه عبر الزجاج . كانوا مشدوهين بعض الشيء ، ولكنهم كانوا يتمالكون أعصابهم .
وقالت ريريت وهي تضحك :

— انني اتمثل ذلك ، هاهاها ! زوجك على الشرفة ، وآل تكسيه في الاستديو !

وردّدت عدة مرّات : « زوجك على الشرفة ، وآل تكسيه في الاستديو ! » وكانت تود لو تجد كلمات طريفة موحية لتصف المشهد للولو ، وكانت تعتقد ان لولو لم تكن تملك حسّ الفكاهة . ولكن الكلمات لم تكن لتأتي .

وقالت لولو :

— وفتحت الباب ، فدخل هنري. وقبلني امام آل تكسييه وهو يدعوني بالعفريته الصغيرة ، ويقول : « لقد ارادت العفريته الصغيرة ان تلعب معي لعبة ا » وكنت أبتسم ، وكان آل تكسييه يتسمون بأدب ، وهكذا كان الجميع يتسمون . ولكن حين ذهبوا ، وجه إليّ لكمة على أذني . واذذاك تناولت فرشاة وقذفته بها فأدرسته في فمه : وهكذا شققت شفثيه كليهما .
قالت ريريت في حنو :

— يا صغيرتي المسكينة لولو !

ولكن لولو ردت بالحركة كل شعور من عطف . كانت واقفة باستقامة وهي تنفض خصلات شعرها وعليها هيئة المحاربة . وكانت عيناها تقدحان شرراً .

— وعند ذلك تحدثنا : فمسحت شفثيه بمنشفة وقلت له انني بت نافذة الصبر ، وانني لا أحبه بعد ، وانني سأتركه . فأخذ يبكي ، وقال إنه سيقتل نفسه اذا فعلت . ولكن ذلك لم يؤثر فيّ : انك تذكرين يا ريريت انه كان في العام الماضي ، في أثناء حوادث رينانيا ، يغني لي هذا الموال كل يوم : ستقوم الحرب يا لولو ، وسأذهب الى الجبهة وسأقتل ، وستفتقديني وسيأخذك الندم على كل ما سببته لي من مشقات . وكنت أجيبه : « كفي ، انت عني ، وهذه احدى الحالات للتسريح من الجنديّة . » ومع ذلك ، فقد هدأته ، لأنه كان يتحدث عن نيته في ان يجسني في الاستديو ويفعل عليّ ، وأقسمت له انني لن أذهب قبل مضيّ شهر ، وبعد ذلك ، ذهب الى مكتبه ، وكانت عيناها حمراوين وعلى شفثيه زبد لزج . إنه لم يكن جميلاً . واما أنا ، فقد قمت بترتيب البيت ، ووضعت العدس على النار ، ثم حزمت حقيبتي . وتركت له كلمة على طاولة المطبخ .

— وماذا كتبت له ؟

قالت لولو باعتزاز :

— كتبت له : « العدس على النار . كُئِلْ واطفيء الغاز . في البراد لحم خنزير . أما أنا ، فقد مللت وأنا ذاهبة . وداعاً . »
وضحكنا كلتاها ، والتفت بعض المارة اليهما . وفكرت ريريت ان منظرهما لابد ان يكون جذاباً ، فأسفت أنها لم تكن جالسة على سطيحة « فيال » او « كافيه دولابي » . وحين انتهتا من الضحك صمتتا ، ولاحظت ريريت انه لم يبق لديهما ما تقولانه . وكانت تشعر ببعض الحية .
وقالت لولو وهي تنهض :

— يجب ان أذهب . سألقى بيار عند الظهر . ماذا أصنع بحقيتي ؟
قالت ريريت :

— دعيتها لي ، سأودعها الساعة عند سيده المغاسل ، متى أراك ثانية ؟
— سأمرّ لآخذك عند الساعة الثانية . إن عليّ ان اشترى كثيراً من الحاجات :
فأنا لم آخذ نصف حاجاتي ، ويجب ان يعطيني بيار مالاً .
وذهبت لولو فنادت ريريت الخادم . وكانت تحسّ نفسها حزينة حزناً يكفي لاثنين . وهرع الخادم : وكان قد سبق لريريت ان لاحظت أنه كان دائماً يسرع في المجيء حين كانت هي التي تناديه . وقال :
— خمسة فرنكات .

وأضاف بلهجة لا تخلو من جفاف :

— كنتما ، انتما الاثنتين ، مرحتين جداً ، وكان الناس يسمعون ضحكاتكما من تحت .

وفكرت ريريت في شيء من الإشفاق بان لولو قد جرحته ، فقالت حمرة الوجه : إن صديقتي نائرة الاعصاب قليلاً هذا الصباح .
فقال الخادم في حيوية :

— إنها جذابة . اشكرك يا آنسة .

وقبض الفرنكات الستة ثم مضى . وعرى ريريت بعض الدهشة ، ولكن انقضى الظهر وفكرت بأن هنري سيعود عما قليل الى البيت فيجد كلمة لولو :
وكانت تلك لحظة ملائ بالعدوبة بالنسبة لها .

قالت لولو لأمينة الصندوق في لهجة متعالية :
— اريد ان يُرسل هذا كله قبل مساء الغد الى « فندق التياتر » ، شارع
فندام .

والتفتت الى ريريت :

— انتهيينا يا ريريت . نستطيع ان نذهب .

قالت امينة الصندوق : — باسم مَنْ ؟

— السيدة لوسيان غريسبان .

وألقت لولو معطفها على ذراعها وأخذت تركض ؛ وهبطت سلم
« الساماريتين » الكبير وهي تعدو . وكانت ريريت تتبعها ، وكادت بضع
مرات تسقط لأنها لم تكن تنظر الى قدميها : لم تكن تنظر الى الطيف الدقيق
الأصفر الأزرق الذي كان يرقص أمامها ! « صحيح ، رغم كل شيء ،
أن لها جسداً داعراً .. » كانت ريريت كلما رأت لولو ظهرها او جانباً تفجأها
دعارة أعضائها ، ولكنها لم تكن تدرك لذلك سبباً ، كان هذا انطباعاً . « إنها
طرية ودقيقة ، ولكن لها شيئاً غير محتشم لا أستطيع إدراكه . . إنها تفعل كل
ما في وسعها لتتقوّل ، ولا بدّ أن هذا هو السرّ . هي تقول انها خجلة من
مؤخرتها وهي مع ذلك ترتدي تنانير تلتصق بفخذها . صحيح أن مؤخرتها
صغيرة ، أصغر من مؤخري بكثير ، ولكنها أكثر بروزاً . انها مستديرة
تماماً ، تحت خاصرتيها الهزيلتين ، وهي تملأ تنورتها جيداً ، فكأنما صبّت
فيها صبياً ، ثم إنها ترقص . »

والتفتت لولو ، فتبادلنا البسمة . كانت ريريت تفكر في جسد صديقتها
الفاجر بمزيد من الاستنكار والاسترخاء : نهذان صغيران مشمران ، وبشرة
ملساء ، شديدة الصفرة — يحسب من يمسّها انها من المطاط — وفخذان
طويلان وجسم طويل سوتيّ ذو أعضاء طويلة ؛ وفكرت ريريت : « جسم
زنجية . انها تشبه زنجية ترقص الرومبا . » وبالقرب من الباب عكست مرآة
لريريت صورة اعضائها الريانة ، وفكرت وهي تتناول ذراع لولو : « اني

رياضية أكثر منها . صحيح انها تحدث اثراً اكبر حين تكون مرتديتين الثياب ،
ولكنني بالتأكيد أحسن منها وانا عارية . »

وبقيتا لحظة صامتتين ، ثم قالت لولو :

— كان بيار لطيفاً . وانت ايضاً كنت لطيفة يا ريريت . انني شاكرة
لكما معاً حسن المعاملة .

كانت قد قالت ذلك بهيئة مكبوتة ، ولكن ريريت لم تلتقي اليها بالاً : إن
لولو لا تحسن الشكر ابداً ، إنها مفرطة الحجل .

قالت لولو فجأة :

— يجب ان أشتري رافعة للنهود ، بالرغم من ان ذلك يضايقي .

قالت ريريت : « هنا ؟ » وكانتا تلمّان بحانوت للملابس .

— لا . وانما فكرت بذلك لأنني رأيت واحدة منها . انني اشتري رافعاتي

من محلات « فيشر » .

فصاحت ريريت :

— جادة مونبارناس ؟

ثم استطردت جادة :

— ولكن تنبهي جيداً يا لولو ، الافضل ألاّ تبالغي في ارتياد جادة مونبارناس ،

ولا سيما في مثل هذه الساعة : اننا سنقع على هنري ، وسيكون ذلك مزعجاً
الى غير حدّ .

قالت لولو وهي ترفع كتفها :

— على هنري ؟ ولكن لا ، لماذا ؟

فصبغ الخنق خدّي ريريت وصدغيها بالاحمرار :

— انك لا تتغيرين يا صغيرتي لولو . حين يزعجك شيء ما ، تنكرينه

بكل بساطة . إن لديك رغبة في ان تقصدي محلات فيشر ، فاذا بك تعتمدين

بان هنري لا يمرّ في جادة مونبارناس . وانت تعلمين جيداً انه يمرّ فيها كل

يوم عند الساعة السادسة ، فهذه هي طريقه . لقد قلت لي ذلك انت نفسك :

انه يصعد طريق « رين » ، ويذهب الى زاوية جادة راسباي ينتظر الاتوبيس .
قالت لولو :

— أولاً ، الساعة لم تتجاوز الخامسة ، ثم إنه ربما لم يكن في المكتب : فلا بدّ انه تمدّد في سريره بعد الكلمة التي كتبها له .

قالت ريريت فجأة :

— ولكن هناك فرعاً آخر لفيشر يا لولو ، وانت تعلمين ذلك ، غير بعيد عن الاوبرا ، في شارع كاتر سبتمبر .

فقالت لولو بلهجة رخوة :

— صحيح ، ولكن ينبغي الذهاب اليه .

— آه ! كم احبّك يا صغيرتي لولو ! ينبغي الذهاب اليه ! ولكنه على بعد خطوتين ، وهو اقرب من ممر مونبارناس .

— اني لا احبّ ما يبيعهونه هناك .

وفكرت ريريت في متعة بأن جميع محلات فيشر تبيع البضاعة نفسها .
ولكن كانت تأخذ لولو ضروبُ عناد لا تُفهم : كان هنري بلا شك الشخص الذي كانت أزهد الناس في لقائه تلك اللحظة ، ومع ذلك فكأنها كانت تتعمّد ان تلقي بنفسها بين ساقيه ..

وقالت في ملاطفة :

— حسناً ، لنذهب الى مونبارناس .. والحق ان هنري طويل جداً بحيث سنراه قبل ان يرانا .

قالت لولو : — ثم ماذا ؟ اذا التقيناه التقيناه ، هذا كل شيء . إنه لن يأكلنا .

وأصرت لولو على الذهاب الى مونبارناس مشياً على القدمين ، وقالت انها كانت بحاجة الى الهواء . وتبعنا شارع السين ثم دلفنا الى شارع الاوديون وشارع فوجيرار . وامتدحت ريريت بيار ودلّلت للولو كم كان مناسباً لذلك الظرف .

وقالت لولو : - كم أحب باريس ، وكم ستأخذني الحسرة والندم !
- اسكّني يا لولو . انني لا اتصور ان تتحسّري على باريس حين يتاح
لك حظّ الذهب الى نيس .

فلم تجب لولو وأخذت تنظر ذات اليمين وذات الشمال بجزن واستقصاء .
وحين خرجتا من محلات فيشر سمعتا الساعة تدق السادسة . فأخذت
ريريت لولو من مرفقها وارادات ان تقتادها بأقصى السرعة . ولكن لولو
توقفت امام « بومان » بائع الزهور :

- انظري هذه الزهور الصحراوية يا عزيزتي ريريت . لو كان لدي
صالون جميل للملأته منها .

قالت ريريت : - انني لا أحب الزهور في الآنية .
وكانت حانقة . وقد أدارت رأسها نحو شارع الرين ، فرأت بالطبع ،
بعد دقيقة ، طيف هنري البليد يبرز . كان عاري الرأس ، وكان يرتدي
سترة رمادية من التويد الكستنائي . وكانت ريريت تكره اللون الكستنائي .
وقالت في عجلة :

- ها هو ، يا لولو ، ها هو !

قالت لولو : - اين ؟ اين هو ؟

ولم تكن دون ريريت قلقاً واضطراباً .

- انه خلفنا ، على الرصيف الآخر . لنسرع ، ولا تلتفتي اليه .

ومع ذلك ، فقد التفتت لولو ، وقالت :

- لقد رأيته .

وحاولت ريريت ان تجرّها ، ولكن لولو تصلّبت ، وكانت تنظر الى

هنري في إحداد . وقالت اخيراً :

- أعتقد انه رأانا .

وكانت تبدو مذعورة ، وقد استسلمت دفعة واحدة لريريت وانقادت

لها بوداعة وقالت ريريت وهي تلهث :

— بحق السماء يا لولو ، لا تلتفتي بعدُ . اننا سنسلك الطريق امامنا الى اليمين ، إنه شارع دولامبر .

وكانتا تسيران بسرعة وتدافعان المارة . وكانت لولو تستسلم احياناً لجذب ريريت ، وكانت احياناً اخرى هي التي تجرّ ريريت قدماً . ولكنهما ما كادتا تبلفان زاوية شارع دولامبر حتى رأت ريريت ظلاً كبيراً أسمر خلف لولو ؛ ففهمت أنه كان هنري واخذت ترتجف غضباً . وكانت لولو تحتفظ بأجفائها مسبلة ، وكانت تبدو على رياء . « أنها نادمة على حماقتها ، ولكن بعد فوات الأوان ، فهي وشأنها . »

وحسبنا خطاهما ؛ وكان هنري يتبعهما دون ان ينطق بكلمة . وقطعتا شارع دولامبر ومضتا تسيران في اتجاه الاوبسرفاتوار . وكانت ريريت تسمع طقطقة حذاء هنري ؛ وكان ثمة ايضاً نوعٌ من التحشرج الخفيف المنتظم يوقع مشيتهم : انه نقّس هنري (كان هنري قوي التنفّس دائماً ، ولكن ليس الى هذا الحدّ : فلا بدّ انه قد ركض ليدركهما ، او لعلّه الانفعال) .

وفكرت ريريت : « يجب ان نتصرف كما لو انه لم يكن هنا . ألاّ يبدو علينا اننا نشعر بوجوده . » ولكنها لم تستطع ان تمتنع عن ان تنظر اليه من طرف عينها . كان ابيض كالفماش المغسول ، وكان يسبل جفونه حتى لتبدو عيناه مغلقتين . « كأنه نائم واقفاً » كذلك فكرت ريريت في شيء من الخوف . وكانت شفتا هنري ترتجفان ، وعلى شفته السفلى أخذ طرفٌ صغير من التفتنا الأحمر يرتجف هو ايضاً . وكان هناك النّقّس كذلك ؛ النّقّس المنتظم الأبعث الذي كان ينتهي الآن بنغمة موسيقية مخنّنة . وكانت ريريت تستشعر الضيق : انها لم تكن تخاف هنري ، ولكن المرض والانفعال كانا دائماً ما يعودان عليها ببعض الخوف . وبعد فترة ، مدّ هنري يده على مهل ، من غير ان ينظر ، وأمسك بذراع لولو . فلوت لولو فمها كما لو انها توشك على البكاء ، وتخلّصت وهي ترتعش . وأطلق هنري زفرة .

وأخذت ريريت رغبة جنونية في التوقف : كان لديها وجع في الخاصرة ، وكانت اذناها تطنّان . ولكن لولو كانت تعدو تقريباً ، كانت هي ايضاً تبدو كالنائم واقفاً . وأحسّت ريريت أنها لو تركت ذراع لولو وتوقفت ، لاستمر كلاهما يعدو جنباً الى جنب ، أبكمين ، ممتقعين كالأموات ، مغمضين العيون . وأخذ هنري يتكلم ، فقال بصوت غريب أبحّ :

— عودي معي الى البيت .

فلم تجب لولو . وأضاف هنري بالصوت الأبحّ نفسه ، الخالي من اي لهجة :

— انك زوجتي . عودي معي الى البيت .

وأجابت ريريت وهي تكثرّ على أسنانها :

— انت ترى جيداً أنها لا تريد ان تعود . فدعها وشأنها .

فلم يَبْدُ عليه أنه سمعها . وكان يردّد :

— انا زوجك . واريد ان تعودي معي الى البيت .

قالت ريريت بصوت ثاقب :

— ارجوك ان تدعها وشأنها . انك لن تفيد شيئاً من مضايقتها على هذا النحو . حلّ عتاً .

فأدار نحو ريريت وجهاً مندهشاً وقال :

— أنها زوجتي . فهي لي ، واريد ان تعود معي الى البيت .

وكان قد أخذ ذراع لولو ، ولم تتخلّص لولو هذه المرة ؛ وقالت ريريت :

— اذهب عتاً .

— اني لن أذهب . وسأتبعها الى كل مكان . اني اريد ان تعود الى البيت .

وكان يتحدث في جهد . وفجأة ، كثرَ تكشيرة كشفت عن أسنانه

وصاح بكل قواه :

— إنك لي !

والثفت بعض المارّة وهم يضحكون . وكان هنري يهزّ ذراع لولو ويهدر

كالحبوان وهو يزمّ شفّته . ومن حسن الحظ ان مرّت في تلك اللحظة سيارة
تاكسي فارغة ، فأشارت ريريت اليها فتوقفت . وتوقفت هنري كذلك .
وشاءت لولو ان تتابع سيرها ، ولكنهما امسكاً بها في شدة ، كلّ من جانب .
وقالت ريريت وهي تجذب لولو نحو الطريق :

— ينبغي ان تفهم انك لن تعيدها اليك ابدأً بمثل هذا العنف .

وقال هنري وهو يجذبها الى الجهة المعاكسة :

— دعها ، دعي زوجي .

وكانت لولو رخوة كرزمة من ثياب . وحمل السائق نافذ الصبر :

— أتصعدون ام لا تصعدون ؟

وتركت ريريت ذراع لولو وأمطرت يديّ هنري بالضربات . ولكنه بدا
وكأنه لا يحسّ بها . وبعد لحظة تراخي وأخذ ينظر الى ريريت نظرة بليدة ،
ونظرت ريريت اليه كذلك . كانت قد جهدت لكي تجمع افكارها ، وكان
اشمئزاز كبير قد اكتسحها . وظلاً على هذا النحو لحظات ، وعيناها في
عينيه ؛ وكانا كلاهما يلهثان . ثم تداركت ريريت نفسها ، فأمسكت بلولو
من قامتها وجرتّها حتى السيارة .

وقال السائق : — اين نذهب ؟

وكان هنري قد تبعهما ، واراد ان يصعد معهما . ولكن ريريت دفعته

بكل قواها وأغلقت الباب على عجل ، وقالت للسائق :

— اوه ! هياً انطلق ، انطلق . سنقول لك العنوان فيما بعد .

وأقلعت السيارة ، وتداعت ريريت للسقوط في جوف السيارة . وفكرت :

« كم كان ذلك مبتذلاً ! » وكانت تشعر بالحقد على لولو . وسألتها

بلطف :

— الى اين تريدان ان تذهبي ، يا صغيرتي لولو ؟

فلم تجب لولو . فأحاطتها ريريت بذراعيها وقالت بلهجة إقناع :

— يجب ان تجيبيني . هل تريدان ان أوصلك الى بيت ييار ؟

فقامت لولو بحركة اعتبرتها ريريت اشارة موافقة . فمالت الى امام وقالت :

— شارع مسين رقم ١١ .

وحين ارتدّت الى خلف ، كانت لولو تنظر اليها نظرة غريبة ، فبدأت ريريت تقول :

— ماذا هناك ...

فهدرت لولو :

— انني أحتقرك ، انني احتقر بيار ، انني احتقر هنري . ماذا تريدون جميعاً مني ؟ انكم تعذبونني .

وتوقفت وقد اعتكرت جميع ملاحظها ، فقالت ريريت في لهجة هادئة :
— ابكي ، ابكي ، إن هذا يعود عليك بالخير .

وانطوت لولو وأخذت تنشج . وأخذتها ريريت بين ذراعيها وضمتها اليها . وكانت تلامس شعرها بين الفينة والفينة . ولكنها ، في صميمها ، كانت تستشعر البرودة والاحتقار . وحين توقفت السيارة ، كانت لولو قد هدأت . فمسحت عينيها ووضعت على خديها المسحوق الأبيض ، وقالت في ملاطفة :
— أعذريني ، كان ذلك مثيراً للأعصاب . انني لم أطق ان اراه في تلك الحالة . كان يؤلني .

فقالت ريريت وقد استردت هدوءها :

— كان يشبه قرداً مسناً .

فابتسمت لولو . وسألته ريريت :

— متى أراك ثانية ؟

— اوه ، ليس قبل الغد . هل تعرفين ان بيار لا يستطيع ان ينزلي عنده بسبب امه ؟ انني في « فندق التياتر » . وباستطاعتك ان تأتي مبكرة ، حوالي الساعة التاسعة ، اذا كان ذلك لا يزعجك ، لأنني سأذهب بعد ذلك لرؤية امي .

كانت ممتعة ، وفكرت ريريت في حزن أنها فظيعة ، تلك الطريقة التي

كانت لولو تستطيع بها ان تتحلل . وقالت :

— لا تجهدني نفسك اكثر مما ينبغي هذا المساء .

فقالت لولو : — اني متعبة بشكل فظيع ، وأرجو ان يركني ييار اعود

مبكّرة ، ولكنه لا يفهم قط هذه الأشياء .

واستبقت ريريت السيارة وطلبت من سائقها ان يوصلها الى بيتها . وكانت قد فكرت لحظة بأنها ستقصد السينما ، ولكن تلك الرغبة زابتها . وألقت قبعتها على كرسي ، وخطت خطوة نحو النافذة . ولكن السرير كان يجتذبها بياضه وعذوبته ونداوته نحو جوفه الظليل . كانت تريد ان تلقي نفسها فيه ، وأن تُحسّ بمداعبة الوسادة لخدّيا الملتهين : « اني قوية ، وانا التي فعلت كل شيء من أجل لولو ، وهأنذا الآن وحيدة ، لا يفعل أحدٌ شيئاً لي . » وأحسّت من الاشفاق على نفسها ما جعلها تشعر بفيض من الغصّات تصعد الى حنجرتها . « سوف يذهبان الى نيس ، ولن أراهما بعد . اني انا التي صنعت سعادتهما ، ولن يفكرا بعدُ بي . سأبقى أنا هنا أعمل ثماني ساعات في النهار ، أبيع مجوهرات مزيفة عند « بروما » .

وحين تدحرجت الدموع الاولى على وجنتيها ، تداعت للسقوط برفق على سريرها ، وكانت تردّد وهي تبكي بمرارة : « في نيس .. في نيس .. تحت أشعة الشمس ، .. في الريفيرا .. » .

٣

« تفه ! »

ليل أسود . لكأنّ أحداً كان يمشي في الغرفة : رجل يلبس مشاية . كان يقدم رجلاً في حذر ، ثم الأخرى ، من غير ان يستطيع نحاشي قرعة بسيطة للأرض الخشبية . وكان يتوقّف ، فتسود لحظة صمت ، ثم يستعيد كالأحمق سيره الضال ، محمولاً فجأة الى الجانب الآخر من الغرفة .

كانت لولو تحسّ بالبرد ، وكانت الأغطية أخفّ مما ينبغي . وكانت قد قالت « تفه ! » بصوت مرتفع فأخافها جرّس صوتها .

تفه ! اني واثقة الآن بأنه ينظر الى السماء والنجوم ، ويشعل سيكارة ، انه في الخارج ، ولقد قال إنه كان يحبّ لون سماء باريس البنفسجي . إنه عائد الى البيت بخطى صغيرة ، بخطى صغيرة : إنه يحسّه شاعرياً حين يفعل ذلك ، لقد قال لي هذا ، وخفياً كبقرة بعد حلبها ، إنه لا يفكرّ في ذلك بعد - اما انا فقد تلتطّخت . إنه لا يدهشي ان يكون طاهراً ، وهو في هذه اللحظة قد ترك قذارته هنا ، في الظلام ، وهنا منشفة مملثة بها ، والشرف رطبٌ في وسط السرير ، وانا لا أستطيع ان أمدّ ساقِي لأنني سأحسّ الرطوبة تحت جلدي ، أية قذارة ، وهو جافّ كل الجفاف ، وقد سمعته يصفر تحت نافذتي حين خرج ؛ كان هنا في لباسه التحتيّ ، جافاً ونضراً في ثيابه الجميلة ، بمعطفه الربيعي ، يجب الاعتراف بأنه أنيق الملبس ، وتستطيع اية امرأة ان تعزّز بالخروج معه ، كان تحت نافذتي ، وكنت انا عارية في الظلام ، وكنت أحسّ البرد ، وكنت افرك بطني بيديّ لأنني كنت أحسبني ما زلت ملوثة . لقد قال : « سأصعد دقيقة لأرى غرفتك . » وقد بقي ساعتين ، وكان السرير يصرّ - هذا السرير الحديدي الصغير القذر . اني أتساءل من أين عثر على هذا الفندق ؛ كان قد قال لي انه سبق ان أمضى فيه خمسة عشر يوماً ، واني سأكون مرتاحة فيه ، والحق انها غرف عجيبة ، رأيت اثنتين منها ، ولم يسبق لي ان رأيت في مثل صغرها ، ثم انها تغصّ بالأثاث ، ففيها مقاعد جلدية منفوخة وأرائك وطاولات صغيرة ، وهي أسنّةٌ بالحبّ ؛ ولست ادري اذا كان قد قضى فيها خمسة عشر يوماً ، ولكنّه بالتأكيد لم يقضها وحده ، لا بدّ انه لا يحترمني كثيراً ، وإلاّ لما حشرني هنا . كان خادم الفندق يقهقه مازحاً حين صعدنا ، وهو جزائري ، وانا اكره هؤلاء الأشخاص وأخاف منهم ؛ لقد نظر الى ساقِي ، وبعد ذلك عاد الى المكتب ، ولا بدّ انه قال لنفسه : « هكذا اذن ، انهما يفعلان ذلك » ثم تصوّر أشياء قدرة ،

ويبدو انه مريع ، ما يفعلونه هناك ، للنساء ؛ لئن وقعت احداهن تحت يدهم ، بقيت عرجاء طوال حياتها ؛ وقد ظللت ، فيما كان يبار بضايقي ، افكر بهذا الجزائري الذي كان يفكر بما كنت أفعله وكان يتصورّ قذارات أسوأ مما كان الواقع . إن في الغرفة أحداً !

وأمسكت لولو أنفاسها ، ولكن سرعان ما تلاشت الطقطقة . إن بي ألما بين الفخذين ، يتأكلني ويلهيني ، وإن بي رغبة أن أبكي ، وسيكون الأمر كذلك كل ليلة ، الا الليلة القادمة ، لأننا سنكون في القطار . وعضت لولو شفتها وارتعشت لأنها كانت تتذكر أنها قد أتت . هذا غير صحيح ، فأنا لم أئنّ ؛ كل ما في الأمر اني تنفّست تنفّساً قوياً بعض الشيء ، لأنه ثقيل جداً ، وحين يكون عليّ يقطع لي نفسى . لقد قال لي : « انت تئنّين ، تنالين المتعة » اني استفزع الكلام في أثناء الفعل ، وأودّ لو نسي أنفسنا ؛ أما هو ، فلا يكفّ عن النطق بالقذارات . انا لم أئنّ ، فأولاً لا أستطيع ان انال متعة ، وهذا واقع ، وقد قاله الطبيب ، إلا ان أمنح نفسي هذه المتعة ، بنفسى . وهو لا يريد ان يصدّق ذلك ، إنهم لم يريدوا قط ان يصدّقوه ، وقد كانوا يقولون : « السبب هو ان البداءة معك كانت سيئة ، اما انا فسأعلمك اللذة » ؛ وقد كنت أدعهم يقولون ذلك ، وكنت اعرف شأني في ذلك ، فهذا امرٌ طبيّ : غير ان ذلك يغيظهم .

كان ثمة من يصعد الدرج . إنه واحدٌ يعود الى غرفته . الا ان يكون هو الذي يعود ، يا إلهي . إنه لجدير بذلك ، اذا عاودته الرغبة . إنه ليس هو ، فهذه خطى ثقيلة ، او أنه - وقفز قلب لولو في صدرها - لو كان الجزائري ، فهو يعلم اني كنت وحيدة ، وسيأتي ليطلق الباب ، وانني لا أستطيع ، لا أستطيع ان أتحمّل هذا ، كلا ، فالأمر يجري في الطابق تحتي ، هو شخص يعود الى غرفته ، فيضع المفتاح في القفل ، ويستغرق ذلك بعض الوقت ، فهو ثمل ، وانني أتساءل عن ينزل في هذا الفندق ؛ لقد التقيت بامرأة حمراء الشعراء ، بعد ظهر اليوم ، على الدرج ، وكان لها عينا امرأة

تتعاطى التخدير . اني لم أئنّ ! ولكنه انتهى طبعاً الى إثارتي بمداعباته كلّها ،
إنه يُحسن العمل ؛ وانا اكره الأشخاص الذين يحسنون العمل ، واولثر ان
انام مع رجل بكر .. اني احتقر ان أثار ، وان يحفّ حلقي ، اني أخاف
وأحسّ مذاقاً في فمي واشعر بالمذلة لأنهم يعتقدون أنهم يسيطرون عليّ ؛
وسأصنع بيار حين يتلبّس هيئته المزهوة ويقول : « اني املك التكنيك »
يا لهي ، عجباً لهاتيك اللواتي يعتقدن ان هذه هي الحياة ، ومن أجل ذلك
يرتدين ثيابهن ويغتسلن ويتجمّلن ، وجميع الروايات تكتب عن هذا ، ويفكرن
به دائماً ، ثم يكون هذا في نهاية المطاف : تذهب احداهن الى غرفة بصحبة
رجل يكاد يخنقها وينتهي به الأمر الى ان يبئّل بطنها . اريد ان انام ، اوه ،
ليتني أستطيع ان أنام قليلاً ، سأسافر غداً طوال الليل ، وسأكون محطمة .
واودّ رغم كل شيء ان اكون نضرة بعض النضارة لأستطيع ان أتسكّع في
نيس ؛ يبدو انها جميلة جداً ، ففيها شوارع ايطالية صغيرة ، وأقمشة ملوّنة
تجفّ في الشمس ؛ سأنصب مرسمي وسأرسم فتاتي صغيرات لينظرن
ما أفعل . قدارة ! (كانت قد تقدمت قليلاً فلامس جنبها اللطخة المرطبة
من الغطاء) انما اقتادني ليفعل هذا ! ليس ثمة من يجبني ، على الاطلاق . كان
يمشي الى جانبي وكنت اوشك ان أنهار ، وكنت انتظر كلمة عطف ، كان
بوسعه ان يقول : « احبك » صحيح اني ، لو قال ذلك ، لن اعود معه
الى البيت ، ولكن كنت اقول له كلمة لطيفة ، وكنا نفترق صديقين ؛ كنت
انتظر ، وانتظر ، وكانت ريريت غاضبة ، وليس صحيحاً انه كان يشبه
قرداً مسنّاً ، ولكني كنت أعلم انها كانت تفكر بشيء كهذا ، كانت تنظر
اليه شرراً بعينين قنرتين ، عجيب كم هي تستطيع ان تكون شريرة ، وبالرغم
من هذا ، فانه حين أمسك بذراعي لم أصمد ، غير أنه لم يكن يريدني أنا ،
وانما كان يريد زوجته لأنه تزوجني ولأنه زوجي ؛ كان يذلّني دائماً ، وكان
يقول إنه أذكى مني ، وكل ما حدث انما هو غلظته ، فما كان عليه الا
عدم معاملتي من عل ، ولو فعل لكنت ما ازال معه . انا متأكدة انه غير

أسف علي الآن ، فهو لا يبكي ، وانما يهذي : هذا ما يفعله ، وهو مسرور كل السرور لأنه مستأثر وحده بالسريـر ويستطيع ان يمدّ ساقه الطويلتين . اودّ لو أموت . فكـم أخشى ان يسيء الظنّ بي ؛ لم يكن بوسعي ان أشرح له شيئاً ، لأن ريريت كانت بيننا ، كانت تتكلم وتتكلّم ويبدو عليها المظهر المستيري . إنها الآن مسرورة ، وهي تهنيء نفسها على شجاعتها ، وما الأم هذا مع هنري الوديع كالحمل ! سأذهب . سأذهب . لإنهم رغم كل شيء لا يستطيعون ان يقسروني على تركه كالكلب .

وقفت خارج السريـر وأدارت مفتاح النور . إن جورباً وقميصاً داخلياً يكفنيان . ولم تهتمّ حتى بأن تسرح شعرها لشدة ما كانت مستعجلة ، والأشخاص الذين سيروني لن يعرفوا اني عارية تحت معطفي الرمادي الكبير الذي يتدلى حتى قدمي . اما الجزائري (وتوقفت خافقة القلب) فينبغي ان اوقظه ليفتح لي الباب .

وهبطت على رؤوس أصابعها ، ولكنّ الدرجات كانت تططق واحدة واحدة ؛ ونقرت على زجاج المكتب ، فقال الجزائري :

— ماذا تريدان ؟

كانت عيناه ورديتين ، وشعره أشعث ؛ ولم يكن يبدو عليه انه يخيف . وقالت لولو في جفاء :

— افتح لي الباب .

وبعد ربع ساعة كانت تدقّ الباب على هنري .

سأل هنري عبر الباب :

— من هناك ؟

— هذه أنا .

فلم يجب بشيء ، إنه لا يريد ان يدعني أدخل بيتي . ولكني سأدقّ الباب حتى يفتح ، وسيرضخ بسبب الجيران .

وبعد دقيقة فُتح الباب وظهر هنري ممتعاً ، وعلى أنفه بثرة ؛ وكان يرتدي منامته . وفكرت لولو في حنان : « إنه لم ينم » .

— لم أرد ان أذهب هكذا . كنت اريد ان أراك مرة اخرى .

وظل هنري على صمته . ودخلت لولو وهي تدفعه قليلاً . كم هو مرتبك ! إن المرء يعثر به دائماً في طريقه ، إنه ينظر إليّ بعينين مستديرتين ، متدليّ الذراعين ، لا يدري ما يصنع بجسمه . اسكت ، كفى ، اسكت ، اني ارى جيداً انك منفعل وانك لا تستطيع ان تتكلم .

وكان يبذل جهداً ليبتلع ريقه ، وكان على لولو نفسها ان تغلق الباب ،

وقالت :

— أريد ان نفرق صديقين .

وفتح فمه كما لو كان يريد ان يتكلم ، واستدار عجباً حول نفسه وفرّ . ما الذي يفعله ؟ لم تكن تجرؤ على اللحاق به . هل هو يبكي ؟ وسمعته فجأة يسعل : إنه في المرحاض . وحين عاد ، تعلقت بعنقه وألصقت فمها على فمه : كانت تنبعث منه رائحة فيء . وانفجرت لولو باكية ، فقال هنري :

— اني مقرر .

فاقترحت عليه وهي تبكي :

— لنم ، فأنا أستطيع أن أبقى حتى صباح الغد .

وناما ، وكانت غصات دمع كبيرة تهزّ لولو لأنها وجدت من جديد غرفتها وسريرها الجميل النظيف والشعاع الأحمر في الزجاج . وكانت تفكر بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . : كان متمدداً بطوله كما لو أن وتداً قد أضجع في السرير . إنه متصلب كما لو كان يتحدث الى سويسري ، وقد أخذت لولو رأسه بين يديها وحدقت في عينيه : « إنك نقيّ ، انت ، انك نقيّ » فأخذ يبكي .

وقال : — كم انا شقيّ . لم يسبق لي قط ان كنت شقياً الى هذا الحدّ .

قالت لولو : — وأنا كذلك .

وبكيا طويلاً ، وبعد فترة ، اطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه .
 ليتنا نستطيع ان نيكبي هكذا دائماً : نقيين وحزينين ، كأننا يتيمان ؛
 ولكن هذا غير ممكن ، هذا لا يحدث في الحياة . كانت الحياة موجة هائلة
 توشك ان تنقض على لولو وتنزعها من ذراعي هنري . يدك ، يدك الكبيرة .
 إنه مزهوّ بها لأنها كبيرة ، وهو يقول إن المتحدرين من الاسر العريقة يملكون
 دائماً أطرافاً كبيرة . إنه لن يأخذ بعدُ قامتي بين يديه .— كان يدغدغي
 قليلاً ، ولكنني كانت مزهوّة لأنه كان يستطيع تقريباً ان يجمع أصابعه حول
 قامتي . وليس صحيحاً انه عنّين ، إنه نقيّ ، نقيّ — وكسولٌ بعض الشيء .
 وابتسمت عبر دموعها ، وقبلته تحت ذقنه .

قال هنري : — ما الذي سأقوله لأهلي ؟ إن امي ستموت كمدأ .
 إن السيدة كريسيان لن تموت اذا عرفت ، بل هي ستنتصر على العكس .
 سيتحدثون عني ، وهم على المائدة ، خمستهم ، بلهجة تويخ ، كأشخاص
 يعرفون من الأمر كثيراً ولكنهم لا يريدون ان يقولوا كل شيء بسبب الصغيرة
 التي لا تتجاوز السادسة عشرة ، والتي هي أصغر سناً من ان يتحدث الناس
 أمامها عن بعض الأمور . ستضحك في داخلها لأنها ستعرف كل شيء ،
 إنها تعرف دائماً كل شيء وهي تحتقري . يا لهذا الوحل كله ! ثم إن الظواهر
 ضدي ، وابتهلت اليه تقول :

— لا تقل لهم على الفور ، قل اني في نيس بسبب صحي .

— لن يصدقوني .

وقبلت هنري بضع مرات في وجهه .

— انك يا هنري لم تكن لطيفاً معي بما فيه الكفاية .

قال هنري : — هذا صحيح ، لم اكن لطيفاً بما فيه الكفاية .

وفكر لحظة ثم أضاف :

— ولكنك انت ايضاً لم تكوني لطيفة بما فيه الكفاية .

قالت لولو : — انا ايضاً . اوه ! ما أشقانا !

وكانت تبكي بكاء شديداً حتى حسبت أنها ستختنق : لن يلبث النهار ان يطلع ، وسنذهب . إن المرء لا يفعل ابداً ، ابداً ، ما يريد . انه محمول على ذلك . وقال هنري :

— ما كان لك ان تذهبي على هذا النحو .

فتنهدت لولو :

— كنت احبك كثيراً ، يا هنري .

— والآن ، الا تحبيني بعد ؟

— مع من تذهبين ؟

— مع أشخاص لا تعرفهم .

فقال هنري غاضباً :

— كيف تعرفين أشخاصاً لا أعرفهم ؟ أين رأيتهم ؟

— دعك من هذا يا حبيبي ، يا صغيري غوليفر ، لا احسبك ستغار

الآن غيرة الازواج ؟

فقال هنري باكياً :

— انك ذاهبة مع رجل ا

— اسمع يا هنري ، اقسم لك ان لا ، اقسم لك برأس امي ؛ إن الرجال

يشيرون اشمزازي اكثر مما ينبغي في هذه الفترة . وانما انا ذاهبة مع زوج

وزوجته ، صديقين لريريت ، وهما مستآن . اريد ان اعيش وحدي ،

وسوف يجدون لي عملاً ؛ اوه ا يا هنري ا لبتك تعرف كم أنا بحاجة

الى ان اعيش وحدي ، وكم يثير هذا اشمزازي .

قال هنري : — ماذا ؟ ما الذي يثير اشمزازك ؟

— كل شيء (وقبلته) ليس هناك غيرك من لا يثير اشمزازي يا حبيبي ؟

وأمرت يدها تحت منامة هنري وداعبته طويلاً في كل انحاء جسمه .

وارتعش تحت يديها الباردتين ، ولكنه استسلم لها ، واكتفى بالقول :

— سأصاب بالأذى .

كان فيه ، بالتأكيد ، شيء ما قد تحطم .

في الساعة السابعة ، نهضت لولو متورمة العينين من الدموع ، وقالت في وهن :

— يجب ان أعود الى هناك .

— أين ، هناك ؟

— اني في فندق « التياتر » بشارع فاندام . وهو فندق قدر .

— لابقى معي .

— لا يا هنري ، أرجوك ، لا تلحّ ، لقد قلت لك إن هذا كان مستحبلاً .

« إن الموج هو الذي يحملك ، لأنها الحياة ؛ ليس بوسع المرء ان يحكم

ولا ان يفهم ، فليس امامه الا ان يستسلم . سأكون غداً في نيس . »

ودلفت الى المغاسل لتغسل عينيها في الماء الفاتر . وارتدت معطفها وهي

ترتجف . « إنه يشبه القدر . المهم ان أستطيع النوم في القطار ، هذه الليلة ،

وإلاّ وصلت الى نيس ميتة . أرجو ان يكون قد قطع لنا في الدرجة الاولى ؛

وستكون هذه هي المرة الاولى التي اسافر فيها بالدرجة الاولى . إن الأمور

هكذا دائماً : ها قد انقضت سنوات وأنا راغبة في القيام برحلة طويلة

بالدرجة الاولى ، وفي اليوم الذي يتاح لي فيه ذلك ، أجدني قد فقدت

الرغبة تقريباً . » وكانت مستعجلة الآن في الذهاب ، لأن هذه اللحظات

الأخيرة كانت تنطوي على شيء ما لا يُطاق .

وسألت : — ما الذي ستعمله مع غالوا؟

كان غالوا قد أوصى هنري على لافتة إعلان ، فصنعها هنري ولكن

غالوا عدل عنها . قال هنري :

— لا ادري .

وكان قد قبع تحت الغطاء ، حتى بات لا يرى منه بعدُ الا شعره وطرف

من أذنه . وقال بصوت بطيء رخو :

— اودّ لو أنام طيلة ثمانية أيام .

قالت لولو : — وداعاً يا حبيبي .

— وداعاً .

ومالت عليه فأزاحت الغطاء قليلاً وقبلته في جبينه . وظلت وقتاً طويلاً عند العتبة ، من غير ان تعزم على اغلاق باب الشقة . وبعد لحظة ، صرفت بصرها وشدت بقوة على المقبض . فسمعت صوتاً خشناً وحسبت انه سيغمى عليها : كانت قد عرفت انطباعاً مماثلاً حين أهيلت اول حفنة من التراب على نعش أبيها .

« لم يكن هنري لطيفاً . كان بوسعه ان ينهض ليرافقني حتى الباب . ويخيل إليّ اني كنت أكون أقل شقاء لو كان هو الذي أغلقه . »

٤

قالت ريريت وهي تنظر بعيداً :

— لقد فعلت هذا ! لقد فعلت هذا !

كان الوقت مساء . وكان بيار قد تلفن لريريت حوالي الساعة السادسة ، فذهبت تلقاه في مقهى « الدوم » .

وقال بيار : — ولكن ، ألم يكن المفروض ان تريحها انتِ هذا الصباح حوالي الساعة التاسعة ؟

— لقد رأيتها .

— ألم تكن هيبتها غريبة ؟

قالت ريريت : — لا . اني لم الاحظ شيئاً . كانت متعبة بعض الشيء ، ولكنها قالت لي انها أرقت في الليل بعد ذهابك لأنها كانت مهتاجة جداً بفكرة انها مستشاهد نيس ، ولأنها كانت خائفة بعض الشيء من الفتي الجزائري .. يل اسمع : لقد سألتني هل أعتقد انك قطعت تذكرتين بالدرجة الاولى ، وقالت انه كان حلم حياتها ان تسافر بالدرجة الاولى .

وأضافت ريريت بعزم :

— لا ، اني على يقين من انه لم يكن في رأسها شيء شبيه بذلك ؛ على الأقل ما دمت موجودة هنا . لقد بقيت معها ساعتين ، وأنا شديدة الملاحظة بالنسبة لمثل هذه الأمور ، وأستغرب ان يكون قد فاتني شيء . ربما قلت لي إنها غامضة جداً ، ولكني أعرفها منذ أربعة أعوام ، وقد رأيتها في ظروف كثيرة ، وانا املك عزيزتي لولو على طرف اصبعي .

— إن آل تكسييه هم الذين قرروا ذلك إذن .. هذا غريب !
وحلم بضع لحظات ثم استطرد فجأة :

— إنني أتساءل عن أعطاهم عنوان لولو . اني انا الذي اخترت الفندق ، ولم يسبق لها قط ان سمعت باسمه .

وكان يلعب شاردأ برسالة لولو ، وكانت ريريت متضايقه ، لأنها كانت تودّ لو تقرأها ، ولم يكن هو يعرض عليها ذلك . وانتهت الى سؤاله :

— متى تلقّيتها ؟

— الرسالة ؟

— فمدّها لها ببساطة :

— خذي . تستطيعين ان تقرّئي . لا بدّ انها وُضعت عند البواب - والي

الساعة الواحدة .

وكانت وريقة رقيقة بنفسجية ، كالورق الذي يباع في مكاتب التبغ :
« حبيبي الكبير .

« لقد جاء آل تكسييه (ولا أعرف من أعطاهم العنوان) وسأحدث لك مشقة كبيرة ، لأنني لن أذهب يا حبيبي ، يا عزيزي ييار . اني باقية مع هنري لأنه شقيّ اكثر مما ينبغي . لقد ذهبوا اليه هذا الصباح ولم يكن يريد ان يفتح لهم ، وقالت السيدة تاكسييه انه لم يكن يملك بعد وجهاً بشرياً . وقد كانوا على غاية اللطف ، وقد فهموا أعداري ، وهي تقول إن جميع الاخطاء كانت من طرفه ، وانه دبّ ولكنه في حقيقته غير رديء . وتقول انه كان بحاجة الى هذا ليدرك كم كان متعلقاً بي . لا ادري من أعطاهم

عنواني ، وهم لم يصرّحوا بذلك ، ولا بدّ أنهم رأوني اتفاقاً حين خرجت من الفندق هذا الصباح مع ريريت . وقد قالت لي السيدة تكسيه انها كانت تعرف جيداً انها كانت تطلب مني تضحية هائلة ، ولكنها كانت تعرفني معرفة كافية لتعلم اني لن أتهرب من هذه التضحية . اني متحسرة على رحلتنا الجميلة الى نيس ، يا حبيبي ، ولكني فكرت بأنك ستكون اقلنا شقاء لأنك تملكني دائماً . اني لك من كل قلبي وبكل جسمي ، وسنلتقي كما كنا نلتقي في السابق . ولكن هنري سيقتل نفسه اذا فقدني ، فهو لا غنى له عني ؛ واؤكد لك انه لا يسليني اطلاقاً ان أحسّ بمثل هذه المسؤولية . أرجو ألاّ ترتدي سحتك تلك العابسة التي تخيفني كثيراً ، فانت لا تريد ان أشعر بالندم ، أليس كذلك ؟ اني عائدة الساعة الى هنري ، وأراني متوترة الأعصاب قليلاً حين افكر بأنني سأراه ثانية في هذه الحالة ، ولكني سأملك الشجاعة لطرح شروطتي . اني اولاً اريد مزيداً من الحرية لأنني احبك ، واريد ان يترك رويير وشأنه والاّ يقول بعد كلمة سوء عن امي . اني يا حبيبي حزينة جداً ، واودّ لو انك كنت هنا ، فاني بشوق الى لقياك ، وانني اشدكّ إليّ واحسّ ملامساتك عبر جسمي كله . سأكون غداً في مقهى « الدوم » عند الساعة الخامسة - لولو .»

— يا عزيزي المسكين بيار !

وكانت ريريت قد تناولت يده . وقال بيار :

— اصارحك بأنني انما انا متأسف من أجلها هي ! لقد كانت بحاجة

الى الهواء والشمس .. ولكن ما دامت قد قررت هكذا .. لقد كانت أمي تحدث لي مشاكل مربعة . إن المقصورة هي ملكها ، ولم تكن تريد ان آخذ امرأة اليها .

قالت ريريت بصوت متقطع :

— آه ؟ آه ؟ حسناً جداً إذن ! إن الجميع مسرورون ، على هذا النحو !

وتركت يد بيار تسقط : وكانت تحسّ أسفاً مريراً يغمرها ، من غير

ان تدري لماذا .

الفهرست

٣	الغرفة
٣٩	الجدار
٦٩	ايروسترات
٩١	صميمية

روايات مترجمة من منشورات دار الآداب

● الحياة هي في مكان آخر - ميلان كينديا

ترجمة رولا الفريس

ميلان كينديا

● غرايات مريحة

ترجمة فوزي شعاع

يوكو سيشيما

● البحار الذي لفظه البحر

ترجمة عابدة الخريس

بريو ميسا

● عطش للحب

ترجمة محمد عتيق

كوبو شي

● امرأة في الرمال

ترجمة كامل حميد يوسف

كينزا بورو لوي

● علمنا أن نتجاوز جنونا

ترجمة كامل حسين يوسف



مكتبة

الفكر الجديد

تصميم الغلاف:
نيكول برسودر



دار الآداب

طابع ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب. ٤١٢٣ - ١١ بيروت